روايات عبير



ساره كريفن

الحصن المرصود

٧٦

روايات عبير

HARLEQUIN – "ABIR" – No. 76

الحصن المرصود

الخوف ليس عاطفة ولا ردة فعل عابرة. انه شعور عميق متجذر في النفس البشرية منذ [illegible] ان على الأ[illegible] ومواجهته اخطارها الكثيرة. الخوف من الماضي، الخوف من الفضيحة، الخوف من الهواجس، الخوف من الفشل... لكل خوف ظروفه وحكايته.

واندريا التي شاءت ان ترحم ابنة عمها الطائشة، فحلت محلها في اغرب صفقة، وجدت نفسها ترتجف كورقة في مهب الريح وسط حصن يكاد ينهار في منطقة اوفيرن الفرنسية. هناك واجهت بليز صاحب الحصن، حيث تختبىء اسطورة مرعبة يكاد الزمن يكررها... ولولا سقوط الثلج لتمكنت اندريا من الفرار، لكن الى اين وقلبها بات اسيرا في الحصن المرصود.

العنوان الاصلي لهذه الرواية بالانكليزية

A PLACE OF STORMS

المراسلات
Harlequin (Cyprus) Ltd.
29 Michalakopoulou St.
Athens T.T. 612, Greece

Printed in Great Britain by
Richard Clay (The Chaucer Press) Ltd, Bungay, Suffolk

١- التفتيش عن حل

«ارجوك يا اندريا يجب ان تساعديني، فليس لي سواك».

«انا لا اعرف شيئاً عما تتكلمين، ولا اريد ان اعرف. فنحن لم نعد اطفالا. ربما كان بامكاني انقاذك في الماضي من مشاكلك مع نان والأخت بنيديكت غير انك الآن فتاة ناضجة وعليك ان تدبري امورك بنفسك».

«لا تقسي علي يا آندي».

قالت كلير بانكسار.

«حان الوقت لكي يقسو عليك أحد. أفسدك عمي ماكس من فرط التدليل وانت تدركين هذا».

امتلأت عينا كلير الكبيرتان بالدموع وأحنت رأسها وتمتمت: «أعلم هذا. ولكنك أملي الوحيد وعليك ان تساعديني».

«هراء!».
صرخت اندريا بصوت ارادته معبراً وتابعت:
«ومهما يكن من أمر، نصيحتي اليك ان تذهبي الى بيتر وتخبريه بالأمر. فأنت ستزفين اليه بعد ستة أسابيع ولن يمكنك اخفاء اي شيء عنه عندئذ».
انقطع صوت اندريا فجأة عندما رأت كلير تغطي وجهها بيديها وتجهش بالبكاء واجتاحها شعور بالقلق وقامت عن مقعدها واتجهت الى المقعد حيث تجلس كلير واحاطتها بذراعيها وقالت:
«ليس الأمر بهذا السوء يا عزيزتي».
«بل انه لكذلك. انا في ورطة رهيبة! وقد لا يكون هناك زواج وهذا سيجعل ابي فريسة للمرض مرة اخرى. انا متأكدة من ذلك».
«يحسن ان تخبريني بالأمر اذن».
كانت كلير تتمتع بجمال باهر تصعب مقاومته كما كانت على اقتناع تام من ان بيتر وحده قادر على اسعادها. وكان هذا هو المهم في نظر اندريا ولو انها على يقين من ان بيتر ما تقدم طالباً الزواج من كلير لو لم تكن ابنة ماكسويل ويستون بالذات.
«حسناً. ماذا يجري اذن؟».
فتنهدت كلير من اعماقها وهي تقول:
«هناك شخص آخر».
لم تصدق اندريا أذنيها اذ كانت متأكدة من اخلاص كلير لبيتر برغم ما عرفته عن نزواتها الكثيرة ومغامراتها التي لا تحصى.
«هل أعرفه؟».
«كلا انه فرنسي».
«أحسب انك التقيته عندما كنت عند مارتين في باريس».
قالت اندريا وهي تحاول عبثاً ان تسترجع في ذاكرتها ما كانت تذكره لها كلير في رسائلها القليلة ثم تابعت:
«انه ليس جاك يا كلير. أم انه جاك؟».
سارعت كلير تنفي هذا ثم قالت وفي صوتها وعينيها امتعاض شديد:
«غير انه السبب في كل ما حصل. لو لم أكن مأخوذة به آنذاك ما كنت

لاتورط مع هذا اللوفاليه».
«اسمه لوفاليه اذن وكيف التقيت به؟».
«لم التقه بعد».
اجابتها كلير ورمتها بنظرة شفافة جعلتها تغمض عينيها وتطلب من الله ان يهبها نعمة الصبر ثم قالت:
«لا يعقل ان يقع الانسان في حب شخص لا يعرفه».
«انا لا أحبه قلت لك اني لم أره ابداً. ولكن عندما تخلى عني جاك من اجل هذه اللعينة جاني، شعرت برغبة في الموت ولم يبق لأي شيء معنى، وعندما عرض علي لوفاليه الزواج، خيّل اليّ ان الله ارسل لي ما يصون كبريائي ويحفظ كرامتي».
«وكيف يعرض عليك الزواج شخص غريب لا تعرفينه؟».
«ليس هذا ما حصل بالضبط تراسلنا قبل ذلك. انه احد اقرباء مارتين، ولكن عائلتها لا تتحدث عنه كثيراً ويعتبرونه كالخروف الضال. كان يقيم في مكان ما في الخارج وعندما ورث هذا القصر في اوفيرن عاد واتصل بعائلة مارتين حاملاً غصن الزيتون على ما اعتقد. لكنهم تجاهلوا بادرته. وعندما لم يجبه احد قررنا انا ومارتين ان نبعث له برسالة على سبيل المزاح. ولكنه لم يتأخر في الاجابة اذ وصلت رسالته في البريد التالي. كانت رسالة لطيفة ولكن بدا واضحاً انه وجد الامر مسلياً وكأنه ادرك ما كنا نرمي اليه. ولكن مارتين لم تعد تجسر على متابعة المراسلة فتوقفت عن الكتابة خوفاً من ان تكتشف عائلتها هذا الامر وتحرمها من العطلة الرياضية التي كانت موعودة بها. فكتبت الرسالة الثانية بنفسي وارسلتها له. وهكذا ابتدأنا نتبادل الرسائل واخبرته اموراً كثيرة حتى انني اخبرته عن جاك وشعرت براحة كبرى بعد ان افضيت له بما في نفسي. كان هذا سهلاً لانني لم اكن اعرفه ولم اشعر باي حرج... بعد هذا عرض عليّ الزواج».
«لكن لماذا؟ هل ذكر لك سبباً؟ ام اشفق عليك؟».
سألتها اندريا مستفسرة:
اجابت كلير ببرود:
«كلا، ولقد اوضح هذا الامر جيداً وجاء عرضه اقرب الى عرض عمل. قال انه كان بحاجة الى زوجة وذلك لتسوية قضية قانونية. لم يذكر

نوع القضية ولكنه قال ان بوسع احدنا ان يساعد الأخر فهو بحاجة الى زوجة وانا بحاجة الى من ينتشلني من حالة اليأس والضياع التي كنت اتخبط فيها. ولقد ألمح بانني انا التي اوحت له بهذا التدبير».

«كان عليك ان تضعي حداً لهذه القضية بطريقة ما».

خيم صمت ثقيل قطعته كلير بقولها:

«لقد قبلت عرضه!».

ولم تسمح لعينيها ان تلتقيا عيني اندريا الكستنائيتين.

«ماذا فعلت يا كلير؟».

«لا تنظري اليّ هكذا. قلت لك انني كنت في حالة يأس كان هذا الحل الوحيد امامي. وكيف اثبت لجاك بانني لم اعد اكترث لأمره؟».

وبعد صمت قصير تابعت:

«انها الحقيقة. ليتني فقط ادركتها آنذاك».

«هذا جنون!».

«شعرت بطمأنينة غريبة بعد ذلك وكنت بالفعل عازمة على المضي في هذا الأمر الى النهاية وبدا لي ان زواج العقل هو افضل زواج. ثم ارسل لي بعض الأوراق لأوقعها وبعض المال ايضاً لشراء جهاز العرس. لم اكن قد اخبرته اي شيء عن والدي وظن انني كنت اقيم مع عائلة مارتين على ما اعتقد».

«وماذا فعلت بالمال؟».

سألتها اندريا وهي تحاول ان تستوعب القصة.

«لم انفقه بالطبع... اعترف انني كنت على وشك انفاقه لولا النوبة القلبية التي اصابت والدي في ذاك الوقت. وعندما ارسلت والدتي في طلبي نسيت كل شيء آخر».

قامت كلير عن مقعدها واتجهت الى مكتب صغير من طراز ريجنسي كان في زاوية الغرفة ودلت اليه بيدها وقالت:

«المال كله هنا. يمكنك ان تعديه اذا شئت».

«لا داعي لذلك دعينا من المال الآن واخبريني باقي القصة. لا بد ان هناك المزيد».

«ولكنك تعرفين القصة. التقيت بيتر بعد ذلك وفي الحال وقع احدنا في

غرام الآخر وتبخر بليز من رأسي تماماً ولم يعد يخطر في بالي الا كحلم مزعج».

«ومتى افقت من هذا الحلم؟».

سألتها اندريا بتهكم.

تناولت كلير حقيبة يدها البيضاء واخرجت منها رزمة من الاوراق والرسائل وقالت:

«عندما وصلتني هذه! وصلني الظرف الاول بواسطة مارتين. كان يحتوي على جميع التفاصيل المتعلقة بالزواج. لم اجبه بالطبع واعتقدت بان عدم اجابتي ستجعله يتخلى عن الامر ظناً منه بان الرسالة لم تصلني».

«وهذا ما لم يحصل بالطبع».

«كلا وصلتني الرسالة الثانية فوراً وليس بواسطة مارتين. ولا بد انه قام ببعض التحريات واكتشف عنواني بطريقة ما. كان في الرسالة مبلغ من المال قال انه ثمن تذكرة السفر وطلب مني ان اخبره بموعد وصولي الى باريس لكي يقوم ببعض الترتيبات لاستقبالي ويرسل سيارة تقلني الى سان جان دي وليش حيث يوجد قصره.

كان عليّ بالطبع ان اجيب... [illegible] المرض ومرّت عدة اسابيع بدون ان اتلقى منه اي شيء وراودني امل بانه تخلى عن الفكرة وكنت في ذلك الوقت قد اعلنت خطوبتي الى بيتر وكان كل شيء رائعاً. لكن لم يدم هذا النعيم طويلا اذ وصلتني رسالة اخرى. كانت مختلفة عن رسائله السابقة. كانت بغيضة. ذكر فيها انه واثق بانني تماثلت الى الشفاء وان الزواج يجب ان يعقد في اقرب وقت».

احنت كلير رأسها قليلا وتنهدت قبل ان تتابع:

«لم يكن بوسعي ان اتجاهل تلك الرسالة. كان عليّ ان اجيب فكتبت اقول له بأنني غيرت رأيي وانني لم اعد راغبة في الزواج منه».

«هل اتيت على ذكر بيتر؟».

«كلا، لم اخبره لحسن الحظ».

قالت ذلك وتجهمت ملامحها واخذت من بين الرسائل واحدة ناولتها لاندريا وهي تقول:

«لانني تلقيت هذه منه. لا بدّ انه ارسلها حالما استلم رسالتي».

فتحت اندريا الرسالة وراحت تقرأ:

«يؤسفني يا آنسة هذا التراجع المفاجىء في موقفك وعدم رغبتك في تنفيذ العقد الذي بيننا. وعليّ ان اخبرك الآن بانه لم يعد بامكاني التراجع وأراني مضطراً لاتخاذ الاجراءات القانونية ضدك لأنك نكثت بالوعد ولم تنفذي الاتفاق الذي بيننا. واري من المناسب تذكيرك بان بين يدي وثيقة تحمل توقيعك وتظهر موافقتك».

كانت الرسالة مطبوعة على الآلة الكاتبة والتوقيع واضحاً.

طوت اندريا الرسالة وهي تشعر بانقباض شديد وبعد تفكير قالت:

«اعتقد انه يعني ما يقول».

وتوقفت عن الكلام عندما رأت النظرة المتألمة في عيني ابنة عمها لكنها عادت وسألتها:

«وهل يستطيع ان يقاضيك لمجرد النكوث بوعد؟».

«لا ادري، لكنه بالتأكيد قادر على اثارة فضيحة كبرى حتى لو لم يكن في نيته ان يرفع الامر الى القضاء. وانت تعلمين أن اصحاب الصحف لن يترددوا في نشر مثل هذه الأخبار خاصة لانها تتعلق بوالدي. ولا يجوز يا آندي ان اعرض ابي لمثل هذا الامر. اذا تسرب اي شيء من هذا للصحف فان ابي سيصاب بنوبة قلبية اخرى تكون القاضية هذه المرة. ولطالما حذرنا الطبيب بوجوب تجنيبه الانفعال والغضب».

وما ان انهت كلير كلامها هذا حتى انفجرت ببكاء مرير تتفطر له قلب اندريا التي راحت تهوّن عليها الأمر وتواسيها.

«هل ستساعديني يا آندي؟».

«لا ادري ماذا بامكاني فعله، ولكنني لن اضنّ عليك بالمساعدة».

«يجب قبل كل شيء ان نستعيد الرسالة التي اقول له فيها انني موافقة على الزواج منه».

قالت كلير وهي تستوي في مقعدها ويعود اليها تفاؤلها ثم اضافت:

«وهذا العقد! كيف وقعته؟ لا بد انني لم اكن وقتها في كامل قواي العقلية».

«بالتأكيد».

اجابتها اندريا بنبرة جافة واضافت:

«وما عساك ان تفعلي؟ هل ستطلبين اليه ان يعيد اليك رسائلك لتتحققي اذا كانت بالفعل تشكل رابطاً قانونياً. اؤكد لك انه لن يقبل هذا».

«لن يقبل هذا بالطبع لذلك يجب ان تذهبي بنفسك الى سان جان دي روش وتسرقيها منه. لا بد انه يحتفظ بها في مكان ما في قصره».

فغرت اندريا فمها مصعوقة وصرخت:

«لقد جننت. لن اذهب».

«ولكنه الحل الوحيد. هل تريدينني ان اذهب بنفسي؟ قد يرغمني عندئذ على اي شيء».

«ولكنه بالتأكيد سيفرش الأرض بالسجاد لاستقبالي انا!».

اجابتها اندريا بتهكم.

«ربما فعل هذا اذا اعتقد انك انا».

قالت كلير:

«انك فعلاً مجنونة!».

قالت لها اندريا واضافت بعد تفكير:

«وهل تظنين بانني سأهرع الى فرنسا لمجرد سرقة بعض الرسائل من شخص انت فرشت دربه بالورود وقطعت له الوعود الكاذبة؟ انت ذاتك تقولين بانك اذا ذهبت الى هناك قد يرغمك على اي شيء. وماذا عني انا؟ الن يرغمني انا على اشياء ظناً منه انني انت؟».

«كلا، كلا!».

اجابتها كلير مهدئة وكأنها تطلعها على تفاصيل خطة موضوعة:

«اذا حصل هذا فما عليك الا ان تطلعيه على الحقيقة وتقولي له من انت».

حملقت اندريا في وجهها مشدوهة ثم قالت:

«لقد وضعت الخطة بحذافيرها».

«بالفعل استحوذت هذه القضية على كل تفكيري ولم اكن لافكر بشيء سواها. وفي اي حال لن يمكنني الذهاب بنفسي. كيف سأبرر غيابي لبيتر؟ اصبح زواجنا وشيكاً وعليّ ان اقوم ببعض التحضيرات. لم تعد القضية تتحمل اي تأخير فقد يحضر هذا اللوفالييه الى لندن وعندها سيعلم الجميع

ويقع ما كنا نخشاه».

انهت كلير كلامها وهي ترتجف وكمن تذكّر امراً كان غائباً عن ذهنه، ادارت الى اندريا عينين متوسلتين وقالت:

«سوف يتخلى عني بيتر ان هو عرف بالأمر. وسوف تشجعه امه على تركي فهي تكرهني. آه يا آندي سوف انتحر ان انا خسرت بيتر».

نظرت اليها اندريا ببرود وقالت:

«بدل ان تنتحري يمكنك عندئذ ان تتزوجي من هذا اللوفالييه. الم تراودك فكرة الزواج منه في الماضي؟».

«ظننتك ستقدرين موقفي لكنك بدون قلب!».

«انا اقدر وضعك لكن الامر ليس بهذه البساطة. فأنت تطلبين مني اقتراف جريمة، السرقة جريمة يا عزيزتي».

«ولكن هذه الرسائل تخصني انا. انها لي كيف يكون استرجاع شيء يخصني سرقة؟».

«حبذا لو كان الامر كذلك بنظر القانون».

لوحت كلير بيدها وكأن جميع الانظمة والقوانين في بريطانيا وفي فرنسا يجب ان تخضع لمنطقها هي وقالت باصرار:

«انا كتبت هذه الرسائل وانا ابغي استرجاعها. وانت وحدك تستطيعين ان تقومي بهذا العمل».

«وكيف بالله عليك توصلت الى هذه النتيجة؟ وهل في العائلة نزعة كامنة الى الجريمة لم تظهر حتى الآن؟».

«كلا، كلا، ولكنك يا اندريا خبيرة في حقل العلاقات العامة ولك دراية في معاملة الاشخاص ذوي المراس الصعب. وسمعتك تقولين لوالدتي الاسبوع الفائت بانك لك الحق في عطلة».

قالت هذا وهي تتفرس في وجه ابنة عمها ولما وجدت ان ملامحها ظلت جامدة لا تلين تابعت تقول:

«افعلي هذا من اجل ابي ان لم يكن من اجلي انا. انت تعلمين انه يعتبرك كابنته تماماً . . .».

قاطعتها اندريا والاحمرار يكسو وجهها:

«لا انسى ابداً فضل والدك على مصاريف دراستي. لم يكن عليك ان

تذكريني بذلك ولكن الابتزاز على ما يبدو مرض ينتقل بالعدوى!».

ونهضت اندريا من مكانها وتناولت معطفها وحقيبة يدها وهمّت بالانصراف:

«لقد اغضبتك».

قالت لها كلير ثم اضافت معتذرة:

«لم يكن ذلك قصدي ولكنني قلقة جداً يا آندي».

«اعلم ذلك لا بدّ ان نجد حلا. وأعدك بأن اعمل ما بوسعي».

«هناك حل، بوسعي ان اطلب اليه الذهاب الى [illegible]. ولكن تصوري يا آندي ما سيحصل. لن يتردد في اقامة الدعوى امام المحاكم وسيصل هذا الخبر الى الصحف وهذا سوف يدمر ابي وهو الحريص على ابقاء حياتنا الخاصة بعيدة عن الفضوليين».

وازدادت عينا كلير اتساعاً عندما خطرت لها فكرة لم تكن في حسابها وصرخت:

«حتى جاك سيصيبه بعض الرذاذ اذا ما اختار هذا اللوفالييه ان ينشر رسائلي على الملأ».

كانت اندريا مضطربة وهي تهبط الدرج المؤدي الى قاعة الاستقبال في الطابق السفلي. لقد صفعتها الحقيقة في كلام كلير. كان والدها قد توفي وهي في سن صغيرة وما لبثت امها ان تبعته فاحتضنها عمها وجعل من منزله منزلا لها لم تعرف سواه منذ وفاة والديها.

وكان عمها ماكس وزوجته ماريان بمثابة الأب والأم لها ولم يدعاها تحتاج الى شيء.

وقفت اندريا عند اسفل الدرج وراحت تفتش في حقيبتها عن مفاتيح سيارتها. وراحت الافكار تدور في رأسها. كانت في لندن عندما اصابت عمها النوبة الأولى وكانت قريبة منه ومن زوجته التي لازمته طوال فترة مرضه ولذلك تدرك خطورة وضعه الصحي اكثر من كلير ولطالما سمعت الاطباء ينصحونه بالابتعاد عن كل ما من شأنه ان يعكّر صفاءه.

وجدت مفاتيحها وراحت تنقلها من يد الى اخرى بصورة آلية وعيناها مسمرتان على الارض لا تريان شيئاً. لو ان بيتر كان شخصاً مختلفاً لذهبت اليه طالبة منه النصح ولكنه، بما عرف عنه من تزمّت وتمسك بالتقاليد

ستصدمه أخبار كلير هذه وتجعله يصدق تلميحات امه عن عدم صلاح كلير كزوجة له. وكانت اندريا تعلم في قرارة نفسها ان الليدي كريجي لم تكن متحاملة على كلير بل حماقات كلير العديدة لافتة للنظر وقصتها مع جاك واحدة من عشرات القصص. ولم يكن عمها ماكس ولا زوجته ماريان على علم بمغامرات كلير.

قطع عليها تفكيرها صوت باب انفتح. رفعت اندريا عينيها ورأت امرأة عمها ماريان تخرج منه. توقفت عندما رأتها وقالت:

«ها انت هنا يا عزيزتي. كم هي انانية ابنتي كلير لانها تستأثر بك طوال الوقت. أوى عمك ماكس باكراً الى فراشه هذا اليوم وانا وحدي. ابقي معي بعض الوقت ريثما نتناول معاً شراب الشوكولا الساخن».

نزلت اندريا عند طلب امرأة عمها مرغمة. كانت تعلم كم هي متوقدة الذكاء وشديدة الملاحظة وكان على اندريا ان تتقن دورها جدا جدا لئلا تلاحظ ما كان يعتريها من مشاعر وقلق. تناولت من يدها فنجان الشوكولا وراحت تشربه ببطء وسمعتها تسألها.

«هل كنتما تتحدثان عن العرس؟ كنا انا وعمك ماكس في حديث طويل اليوم. قال لي انه سعيد جداً لكون كلير ابنتنا الوحيدة. فلن يكون من السهل عليه ان يواجه مرة اخرى ما يرافق الأعراس من صخب وتحضير».

توقفت امرأة عمها عن الكلام ونظرت اليها بشغف وابتسمت وهي تقول بتحبب:

«انت وحدك مستثناة من هذا يا عزيزتي. وعلى فكرة، متى سيصل الدور اليك؟».

اجابت اندريا بارتباك وتلعثم:

«ليس في الأفق احد الآن. بوسع العم ماكس ان يطمئن. فأمامه سنوات طويلة من الهدوء على ما يبدو».

أمعنت ماريان النظر جيداً في اندريا ولم تملك الا ان تلاحظ القوام الرشيق والخصر الناحل والبشرة الناعمة والشفتين الممتلئتين وقالت:

«انا لا افهم شباب هذا العصر. عندما كنت في سنك كان الشباب يتلقفون الفتيات الجميلات امثالك».

«لكنني لا اريد ان يتلقفني أحد! فأنا لا انوي التخلي عن وظيفتي».

«واحمد الله على ان كلير سوف تستقر اخيراً. كنا قلقين عليها. لم نكن نريد ان نتدخل في حياتها ولكنها كانت دائماً تجعلنا نقلق. لكن شعرنا بالراحة عندما وقع اختيارها على بيتر. انا اعرف رأيك فيه يا عزيزتي ولكنه يناسبها تماماً، صدقيني».

«انا على يقين من هذا الأمر. غير انني اتمنى احياناً لو انه كان اكثر... ماذا أقول...».

«تعبيراً».

اسعفتها امرأة عمها بالكلمة التي كانت تبحث عنها ثم تابعت:

«كنت في بادىء الأمر اشاطرك هذا التفكير ولكنني الآن اصبحت اتساءل عن جدوى اظهار العواطف. المهم ان كلير في غاية السعادة وهي تقول عن بيتر انه خجول وقد تكون على حق. وفي اي حال هذا يفسر سلوكه المتحفظ احياناً».

«ربما انت على حق».

قالت اندريا وهي تضع الكوب من يدها. ثم استفسرت عن صحة عمها قائلة:

«وكيف هو عمي اليوم؟».

«بخير، يمكنني ان امنحه شهادة حسن سلوك، فهو يحاول جاهداً ان يبتعد عن كل ما من شأنه ان يثير عواطفه ويشغل باله».

توقفت ماريان عن الكلام برهة وأخفضت صوتها وكأنها على وشك ان تبوح بسر خطير ثم تابعت:

«ليس من المفروض ان ابوح بهذا الامر ولكنني سأقول لك شيئاً اتمنى ان يبقى سراً بيننا. هناك كلام عن منحه لقب فارس في الدورة المقبلة وهذا امر طالما حلم به وتمناه».

«هذا رائع».

صرخت اندريا بفرح. وكان فرحها صادقاً وعارماً.

ثم توجهت الى امرأة عمها تطمئنها ان سرها في مأمن وقالت:

«اطمئني فلن انبس ببنت شفة ولكن هل هذا القرار نهائي؟».

«تقريباً».

قالت لها ماريان وتابعت:

«هذا اذا لم يحدث ما يفسد عليه الأمر وهذا أحد الاسباب التي من اجلها رحبت بفكرة زواج كلير من بيتر. انت تعلمين كم عمك محافظ وكم هي اراؤه حول الشرف صارمة. انه لا يساوم ابدا في مواضيع الاخلاق والاصول والأدب. ولا يمكن ان يرضى عن اي سلوك مناف للأخلاق. كنت دائماً اخشى ان تقدم كلير على عمل فضائحي وتصل اخبارها الى الصحف. والصحف لا ترحم كما تعلمين ولن يفوت اصحابها فرصة نشر اي مادة مثيرة. وعندئذ سوف يضطر عمك ماكس الى رفض اللقب».

«غير معقول!».

قالت اندريا بقناعة ثم تابعت:

«لا يجوز ان يستمر عمي ماكس في اعتبار نفسه مسؤولا عن حماقات الآخرين. كلير امرأة ناضجة ومسؤولة عن اعمالها».

«كلير هي كلير وستظل كما هي حتى لو أصبحت جدة. وماكس متشدد جداً في هذه الناحية وهو يؤمن بأن الافراد في المراكز العامة عليهم ان يكونوا المثل الصالح».

نظرت اندريا الى امرأة عمها ملياً وقررت بينها وبين نفسها ان تعمل المستحيل لتحميها من كل ما يمكن ان يؤدي الى حرمانها من هذا الصفاء الذي كانت تتمتع به. ابتسمت اندريا وهي تنهض من مكانها مستأذنة امرأة عمها بالانصراف.

* * *

حمدت اندريا ربها الف مرّة لأن المسافة الطويلة التي قطعتها من باريس الى هذا المكان كانت كافية لتعتاد قيادة السيارة في مثل هذه الطرق الضيقة والوعرة. كانت يداها تتشبثان بالمقود باصرار وهي تصعد في السيارة منعطفاً بعد آخر.

رفعت بصرها الى السماء ورأت الغيوم السوداء تتجمع فيها عاكسة على الأرض جواً مكفهراً يقبض الصدر. كان الطقس رائعاً وهي في طريقها من باريس، وأنستها شمس الخريف الذهبية ما كانت سمعته عن طقس اوفيرن العاصف. وكانت قد قرأت في مكان ما وصفاً يقول ان الطبيعة في اوفيرن كانت في حرب دائم مع نفسها. وأوحى لاندريا منظر السماء في تلك اللحظة بان الحرب كانت وشيكة.

انقبضت اساريرها وهي تنظر الى خريطة الطريق. وادركت ان بليز لوفالييه لم يكن ينوي تقديم اي تسهيلات! وتنازلات لزوجة المستقبل، والا لما طلب منها المجيء بمفردها الى هذا المكان المقفر.

اعتبرت اندريا هذا الأمر بمثابة انذار، فكم يلزمها من الشجاعة والثقة بالنفس لتستطيع العيش في هذه المنطقة الجبلية ذات البراكين الخامدة، والتي بدت بيوتها وكأنها شيدت من الحمم الطبيعة من حولها تنطق بالقساوة والبأس وكان عليها ان تذكر نفسها بانها لن تعيش في هذا المكان كل حياتها، وعلت شفتيها ابتسامة ماكرة وهي تتخيّل كلير في مكانها. ماذا كانت ستفعل وهي ترى الوادي السحيق وهذه الطريق الضيقة والوعرة؟ كانت بدون شك ستفقد اعصابها وتحرن في وسط الطريق رافضة التقدم.

اعادتها الخريطة الى الواقع المؤلم. كان امامها بضع كيلومترات قبل ان تصل الى حيث تقصد. علا صوت في داخلها يطلب اليها العودة من حيث اتت. يمكنها ان تترك السيارة في كليرمون فران وتستقلّ القطار الى باريس. ولكن ماذا سيحل بعمها ماكس وبامرأة عمها ماريان؟ أمن اجل كلير وحدها اقدمت على هذه المغامرة؟

حبذا لو استطاعت ان تشاطر كلير رأيها فيما يتعلق بالأوراق، اذ كانت على قناعة تامة بان اندريا سوف تعثر عليها حالما تصل. ولكن لم يكن هذا شعور اندريا ابداً. ولم تملك اندريا الا التسليم بما قالت كلير. كانت تحفظ كلمات رسالة لوفالييه الاخيرة عن ظهر قلب لكثرة ما قرأتها. من يظن نفسه هذا الرجل؟ وهل كان يعتقد بان سعادة الناس واستقرارهم هي ملكه يفعل بها ما يشاء؟ وهل كان ليرضى ان تشاطره الحياة زوجة لا تكنّ له اي عاطفة ولا يربطها به الا وعد سخيف قطعته على نفسها في لحظة طيش؟ لم تكن تذكر الا انه بحاجة الى زوجة من اجل تسوية قانونية. كانت كلير قد اتلفت جميع رسائله الاولى ولم تحتفظ الا ببعضها وكانت هذه خالية من اي ذكر لهذا الموضوع كما انه لم يأت فيها على ذكر مارتين وعائلتها ابداً. وفي اي حال كيف يرضون عنه وهو لا يتورّع عن الابتزاز؟

كانت اندريا كلما تقدمت شبراً يزداد قلقها ويشتد الاضطراب في نفسها. انه ضرب من الجنون هذا العمل الذي كانت مقدمة عليه. انها لا تعرف شيئاً عن هذا الرجل الذي كان بانتظارها. وربما كان مجرماً فاراً اختار

هذا المكان النائي للابتعاد عن الناس. وان لم يكن كذلك فهو بالتأكيد شخص منبوذ لا يقوى على مواجهة الناس ولذلك فضّل العزلة في هذه الارض المقفرة والا لماذا يرضى بزواج بالمراسلة. لقد قال هو ذاته لكلير بانه يكتفي بزواج صوري. فلماذا يا ترى؟

بدأ المطر يتساقط ويحجب الرؤية امامها ولم تكن المساحات لتساعد كثيراً واكتمل المشهد: طقس عاصف وسماء ممطرة وطريق مجهولة!.

حاولت اندريا ان تتصوّر ردة فعل بليز لوفالييه عندما وصلته رسالة كلير الأخيرة التي تعلمه فيها بعزمها على المضي في الامر وتخبره عن موعد وصولها. توقعت كلير وأندريا ان تصلهما رسالة منه ربما فيها تبجح وشماتة، لكنه خيب ظنها ولم يبعث باي رسالة ولذلك راود اندريا أمل بأن يكون قد اهمل ايضاً ارسال السيّارة وفي تلك الحالة ستجد اندريا العذر المقبول لتعود من حيث اتت. خاب ظنها للمرة الثانية. ربما اهمل بليز لوفالييه الاجابة على رسالة تلقاها ولكن ترتيباته كانت بدون ريب في غاية الدقة.

اكفهرّ الجو فجأة وغابت الشمس وراء الغيوم واسودّت السماء وأرعدت ولو كانت اندريا تؤمن بالخرافات لاعتبرت ذلك نذير شؤم.

عندما وصلت اندريا أخيراً الى سان جان دي ورش كان المطر ينهمر بغزارة وهي تشعر بألم في كتفيها وتشنج في عنقها وساعديها من قيادة السيارة على تلك الطريق الكثيرة الانحناءات والانعطافات غير المألوفة.

لم تكن القرية تختلف عن غيرها من القرى التي مرّت بها في طريقها. مجموعة من البيوت شيدت حول ساحة مربعة في وسطها ينبوع ماء. واستوقف نظر اندريا برج ابيض ارتفع بشموخ فوق كل البيوت وبدا كأنه يناطح السحاب. وكانت الطريق من الساحة تتجه صعوداً بشكل حاد. لم يخطىء من اطلق على هذه القرية اسمها، قالت اندريا في نفسها، اذ بدت وكأنها نحتت في الصخر ورأت في خيالها صورة القصر كجسم كبير جاثم فوق اعلى قمة، تحته البيوت كلها.

تابعت طريقها والف فكر في رأسها وفجأة رأت في الضوء المنبعث من سيارتها بناء متداعياً. تمهلت قليلا ومدت رأسها من النافذة لتتبينّ المشهد بوضوح اكثر. بدا كأحد البيوت التي تشيّد عادة قرب بوابات القصور وتخصص للحراس وخيّل لاندريا انها لمحت وجهاً في احدى النوافذ.

ولكن ما لها ولهذا البناء المتداعي. تابعت تقدمها وفجأة اوقفت السيارة واطفأت المحرك وحدقت مشدوهة بالمشهد الذي ارتسم امامها.

قصر في اوفيرن!

هذا ما قالته كلير. ولم تكن الصورة التي رسمتها اندريا في ذهنها لتطابق في اي شيء هذه الخربة المتداعية التي ينطق كل حجر فيها بسنوات من الاهمال.

كان البناء ضخماً ومؤلفاً من عدة اجنحة وفي وسطها برج جميل. وكان المشهد اشبه بصورة في احدى اساطير القرون الوسطى. وبدت جميع الاجنحة ما عدا واحداً مهدمة وفي حالة يرثى لها. حتى ذاك الجناح الوحيد الذي بدا صالحاً نوعاً ما للسكن كانت ابوابه مخلعة وسطحه تنقصه الحجارة ونوافذه مكسرة. بدا المكان مهجوراً تماماً وأوشكت اندريا ان تعود بسيارتها لولا انها رأت خيطاً من الدخان يتصاعد من احدى مداخن القصر.

غمرها شعور بالأسف. كيف وصل هذا القصر المهيب الى هذه الدرجة من الاهمال؟ وهل كان يظن بليز لوفالييه ان ترضى كلير وهي من اعتادت حياة الرفاهية والعز ان تمضي فصل الشتاء في هذه المنطقة وفي هذا القصر بالذات؟ سوف تكون بدون شك كزهرة الاوركاديا التي انتقلت فجأة من خط الاستواء الى القطب الشمالي. اطفأت اندريا اضواء السيارة على امل ان يبدد الظلام صورة واقعها الأليم.

استرسلت في تأملاتها وهي جالسة داخل السيارة. هل كان يعلم يا ترى بليز لوفالييه بان كلير كانت الوريثة الوحيدة لماكسويل ويستون ولذلك كان يصر على الزواج منها بأي ثمن؟ لعله كان يحسب ان الاموال التي ستؤول الى كلير في يوم من الايام سوف ترد له المجد الذي غاب؟ اجتاحتها موجة من الغضب هزت كيانها. ستعرف كيف تتغلب على هذا الرجل الذي كان يهدد استقرار آل ويستون. ضغطت بيدها على بوق السيارة واخترق السكون صوت الزمور معلناً قدومها.

انفتح الباب الكبير وظهرت على العتبة امرأة تحمل مظلة سوداء كبيرة. تأملتها اندريا وهي تجتاز الساحة المفروشة باوراق الخريف وتسرع لملاقاتها. رفعت اندريا رأسها بشموخ وتناولت حقيبة يدها. تقدمت المرأة من باب السيارة وفتحته. وما ان وطئت قدما اندريا الارض، حتى حمل الريح

الوشاح الذي كانت تلف به عنقها وشعرها وكان عليها ان تتمسك بباب السيارة لئلا تقع.

«اهلا بك في سان جان دي روش».

قالت المرأة مرحبة وهي تحاول ان تقيها بمظلتها من المطر المتساقط بغزارة. شكرتها اندريا بصوت خافت وكانتا قد وصلتا قرب الباب عندما تذكرت اندريا فجأة حقيبتها فهتفت:

«نسيت حقيبة ملابسي».

وأرادت العودة الى السيارة لاحضارها لكن المرأة اوقفتها وأفهمتها ان شخصاً اسمه غاستون يحضرها في وقت لاحق وان «السيد» هو الآن في انتظارها.

«وهذا بالطبع امر فظيع ان ينتظر السيد» قالت اندريا في نفسها وهي تعبر الباب.

كان حدس اندريا في محله اذ كانت القاعة التي دخلتها اسوأ حالا من منظر البناء الخارجي. في الصدر موقد كبير بدا خامداً لا نار فيه ولا دفء ينبعث منه. وفي الجهة المقابلة استرعى انتباه اندريا قنديل قديم فوق طاولة من خشب السنديان وعلى الحائط فوق الطاولة رأت اندريا صفوفاً من الرفوف على شكل خزانة عرضت فيها مجموعة من البنادق المختلفة الانواع. وعلى الارض بضع قطع من السجاد لم تغب جودتها عن اندريا برغم القدم الذي اعتراها.

وضعت المرأة المظلة في مشجب قرب الباب فيه عدد من العصي القديمة ثم استدارت الى اندريا وعلى وجهها ابتسامة عريضة وقدمت نفسها على انها السيدة بريسون مديرة المنزل. جالت بعينيها في ارجاء المكان وكأنها تعتذر عن حالته العامة التي، لاحظت اندريا بتهكم انها لم تكن خير دعاية لمقدرتها على ادارة شؤون البيت. ولكن تابعت اندريا تفكيرها، هل كانت مديرة منزل بمفردها لتجترح المعجزات؟ كان هذا المكان بحاجة الى جيش من مديرات المنزل.

توقفت المرأتان امام باب ضخم بدا ان الدهر أكل عليه وشرب وترك عليه آثاراً لا تمحى من الخدوش والنقر. طرقت السيدة بريسون الباب طرقات خفيفة ومتلاحقة ودفعته بيدها وهي تتنحى جانباً مفسحة المجال

لأندريا لان تتقدمها.

دخلت اندريا الغرفة بحلق جاف وقلب واجف.

بدت الغرفة الصغيرة بجدرانها المغطاة بالستائر من السقف الى الارض مريحة الى حدّ ما. وكان في وسطها طاولة كبيرة عليها مفرش ناصع البياض وفوقه بعض اواني المائدة الفضية. وكانت النار المشتعلة في الموقد تبعث في الغرفة دفئاً مريحاً. بجانب الموقد وقف رجل طويل القامة نحيل لدرجة الهزال تقريباً.

كان ينتعل جزمة سوداء لامعة من النوع الذي يستعمل في ركوب الخيل، شعره الاسود اطول بقليل من الزي السائد. وبدا بانفه الأقنى وفمه القاسي ووجهه المتكبر مختلفاً تماماً عن ذاك الخصم الذي كانت قد رسمت له صورة في ذهنها لا تمت الى هذا الواقف هناك بأي صلة.

شعرت بارتباك واختلطت مشاعرها. فالخصم الذي رسمت صورته في رأسها رجل متقدم في السن غليظ القامة وجلف بخلاف هذا الرجل الواقف امامها الذي بدا في الثلاثين من عمره وعلى قدر لا يستهان به من الجاذبية.

ادار الرجل رأسه فكتمت اندريا شهقة كادت تفلت من بين شفتيها. كانت فوق خده الايسر آثار جرح عميق امتدّ من اسفل العين الى منتصف الفك. لم تكن كلير قد ذكرت لها اي شيء عن ندبة فوق وجهه ولكن كيف لها ان تعلم بها؟

هل كان هذا السبب الذي جعله يختار زواجاً بالمراسلة؟ مسكين هو اذن. اوقفت نفسها عن الاسترسال في هذا الشعور فالشفقة لرجل مثله مذلّة.

ظهرت على وجهه ابتسامة ساخرة وكأنه قرأ ما كان يدور في رأسها من افكار وما يختلج في نفسها من مشاعر. شعرت بعينيه الثاقبتين تخترقانها اختراقاً وتنفذان الى اعماقها. وبصوت عميق وأجش قال:

«وصلت اخيراً يا حبي».

ولم تغب عن اندريا رنة الاستهزاء في صوته.

وفي لحظة كانت بين ذراعيه وكأنها في حلم ولم تجد في نفسها القوة على دفعه عنها او الابتعاد عنه.

٢- عروس رغماً عنها

أغلقت مدام بريسون الباب وراءها وكان صوت الباب كافياً لانتزاع اندريا من الحلم. تراجعت بضع خطوات، وبصوت مرتجف كصوت طفلة ساذجة قالت:

«لا ينص الاتفاق الذي بيننا على أي شيء من هذا».

هزّ كتفيه وكأنه كان يجد الأمر مسلياً وقال كمن يشرح درساً:

«هذا هو السلوك المتوقع ولا يجوز ان تتجاهل الاعراف السائدة. ولا أحد سوانا يعرف تفاصيل هذا الاتفاق الذي بيننا. ولا أخالك تريدين ان يتحول الى مادة يتندر بها أهالي القرية».

«كلا بالطبع! ولكنني فوجئت ولم أكن مستعدة لمثل هذا الاستقبال».

«في المرة المقبلة سأفصح عن نيتي بصراحة اكثر».

أجابها وفي صوته تهكّم واضح. وحاولت اندريا ان تتصور ما كان يمكن ان تفعله كلير في مثل تلك الحالة. لا، ربما، وهذا هو المرجح، كانت ستتصرف بغنج ودلال. ولكن هل ستجرؤ هي على التصرف بغنج ودلال ازاء هذا الرجل الماثل امامها؟ كانت اندريا معتادة بحكم عملها مع الرجال، على التعامل معهم وكانوا يعاملونها معاملة الند للند. ولقد نجحت حتى هذه اللحظة في ابقاء علاقاتها بعيدة عن العاطفة. ولكن الأمر يختلف الآن. كان عليها ان تواجه الحقيقة بصراحة.

«كلا، فهذه ليست زيارتي الأولى لهذا الجانب من القارة».

وبدا صوتها في أذنيها متكلفاً. وبابتسامة ساخرة أجابها:

«قد يكون الأمر كذلك. ولكن رسائلك تركت في نفسي انطباعاً بأنك تخشين قيادة السيارات خاصة فوق طرقات غير مألوفة لديك».

«غلطتي الاولى» قالت اندريا في نفسها وقدرت ان تكون كلير قد روت له في رسائلها باسلوبها الانثوي الطريف بعضاً من مغامراتها في قيادة السيارات. عليها اذن ان تلزم الحذر لئلا تقع في غلطة أخرى من هذا النوع. وبمرح لم تكن تشعر به في الحقيقة اجابته وهي تهز كتفيها بأنوثة:

«على الأقل لم أتسبب في موت أحد على الطريق!».

«ان الله رحوم!».

أجابها باسلوب مسرحي وبدا بوجهه ذي الندبة مثل «ساطير» وهو رجل له ساقا عنزة وذيل فرس اعتبره الاغريق القدماء رمزاً للغابات. اقترب منها وانحنى قليلاً وقال:

«هل تسمحين بمعطفك؟».

ولامست انامله كتفيها وشعرت اندريا كأن سلكاً كهربائياً مسها برغم حرصه الواضح على ان تأتي حركته تلك بعيدة عن كل غرض.

أشار بيده الى مقعد قرب الموقد ودعاها لتجلس عليه ثم سألها:

«هل ترغبين بشراب ما ام انك تفضلين الصعود الى غرفتك والاستراحة قليلاً من عناء السفر حتى موعد العشاء؟».

«أفضل ان أبقى حيث أنا فحقائبي ما زالت في السيارة».

فأسرع يقول وهو يجذب حبلاً كان يتدلى بجانب الموقد:

«بالطبع. سأطلب الى غاستون ان يحضرها حالاً».

ثم اتجه الى خزانة ضخمة من الخشب المحفور وتناول منها زجاجة وكوباً وسألها:

«هل تريدين كوباً من شراب العنب ام انك تفضلين شراباً آخر؟».

«شراب العنب، شكراً».

راحت اندريا تراقبه خلسة. رأت في نظرة عينيه عزماً واضحاً وكانت الخطوط حول فمه توحي بالكثير من العناد والتصميم. ولم يبد انه من النوع الذي يمكن اقناعه بسهولة فكيف اذن تجعله يتخلى طوعاً عن فكرة الزواج من كلير بعد ان أنهى الكثير من الترتيبات وقطع شوطاً بعيداً بالتحضير للعرس؟ رفع الكوب بيده وقال:

«نخب تعارفنا يا آنسة».

غمغمت اندريا ببعض الكلمات واصطبغ وجهها باللون الأحمر وليس بالطبع بسبب الحرارة المنبعثة من الموقد. فتح الباب فجأة ودخل منه رجل قصير القامة مستدير العينين اسمر الوجه. وقف بالباب برهة قبل ان يقول:

«نعم سيدي».

«آه، غاستون».

استدار لوفالييه نحوه وخاطبه بالفرنسية، ثم نظر الى اندريا وقال لها:

«هل تسمحين بمفاتيح السيارة يا آنسة؟ سيحضر غاستون حقائبك الآن».

ترددت اندريا قليلا قبل ان تسلمه المفاتيح وكأنها لم تشأ ان تتخلى عن سلاح كانت تعتبره ضمانتها الوحيدة. نظر اليها بليز وقال كأنه قرأ ما كان يجول في رأسها:

«لا عليك يا آنسة. قد يبدو غاستون بسيطاً ولكنه يقوم بعمله بكل اتقان».

لم تجد اندريا ما تقوله تبريراً لترددها واشتد احمرار وجهها ومدت يدها الى حقيبتها وأخرجت علاقة فيها بعض المفاتيح ووضعتها في يد غاستون التي كانت ممدودة وهي تتمتم ببعض عبارات الشكر. وما ان أغلق الباب خلفه حتى قال لها بليز محذراً:

«هو لا يتكلم الانكليزية ولكنك لن تعدمي طريقة للتفاهم معه. انه ابن شقيق مدام بريسون كلوتيلد، اعتنت به منذ صغره. يقوم عادة

بالأعمال الثقيلة وأحياناً يساعد الرعاة على العناية بالقطعان وهو رائع جدا مع الحيوانات وخاصة مع الجياد وكأنه مطبوع بالفطرة على التعامل مع الخيول».

كانت اندريا تصغي الى كلامه برأس منحن وقلب منقبض. ولا شك انه كان يتوقع ان تبدي اهتماماً بهذه التفاصيل، فستصبح سيدة القصر. ولكن وبرغم محاولاتها الصادقة ما لبث فكرها ان شرد وارتسمت صورة ابنة عمها كلير امام عينيها. كيف كانت ستتصرف كلير يا ترى في مثل هذا الظرف؟ كانت اندريا على يقين من شيء واحد وهو ان كلير ما كانت لتحتمل النظر الى أي عاهة جسدية. سألت اندريا:

«هل هو الخادم الوحيد في القصر؟».

«هو وكلوتيلد يقومان بكل اعمال المنزل ولكن لدينا عدد كبير من العمال للزراعة، لكن الأمر يختلف هناك فنحن جميعاً نعمل معاً ويخدم احدنا الآخر».

شعر انها لم تفهم كلامه فرأى ان يشرح لها الأمر وقال:

«كان كل شيء مختلفاً ايام اجدادي. كان أسياد هذا القصر يستأثرون بالأفضل، كانت كرومنا احسن الكروم وكذلك مراعينا وبساتيننا، ولم يتولد عن هذه السياسة غير الفقر والحسد، وكلاهما هدام. وأنا اريد ان اعمّر لا ان اهدم لذلك اتبعت سياسة مختلفة. انشأنا تعاونية وكل فرد في سان جان دي روش يملك اسهماً فيها. انه نوع من العمل الجماعي الذي اعطى افضل النتائج، فالمشروب الذي تنتجه القرية هو حالياً الأجود ولقد ابتدأ يكتسب شهرة تخطت حدود المنطقة. وبعد وقت قصير سيصبح لدينا اجود القطعان للتناسل في اوفيرن. وهكذا لن تتحول سان جان دي روش الى مأوى للعجزة».

«وما هو دورك انت في هذه التعاونية؟».

«أنا مديرها العام».

أجابها وأسرع يضيف عندما رأى النظرة الساخرة التي رمته بها:

«أنا لست اقطاعياً ولو لم اكن املك من الخبرة ما يؤهلني لادارة التعاونية لكنت وجدتني الآن عاملا بسيطاً. لا أخفيك الأمر بأنني تدربت على اعمال الادارة في مزارع المارتينيك وسواها».

توقف قليلا وظهرت على وجهه ابتسامة ساخرة وأضاف:
«واذا كنت يا عزيزتي قد اتيت الى هنا وأنت تظنين بأنك ستقومين بدور سيدة القصر الفاتنة فأنت مخطئة في ظنك».
«انه امر لم يخطر ببالي».
وضعت مدام بريسون الطعام على المائدة وفاحت منه رائحة الثوم والاعشاب بشكل يفتح الشهية. عندها فقط شعرت اندريا بالجوع. كان العشاء مؤلفاً من الفاصوليا مع اللحم والنقانق بطريقة مبتكرة والجبنة البلدية وشراب الفاكهة الفاخر. تناولته اندريا بلذة وشهية حتى لم يبق عندها متسع للفاكهة واستعاضت عنها بفنجان من القهوة.
«يبدو ان طعام كلوتيلد اعجبك».
«جداً».
ولم تكمل كلامها. فأجابها وهو يبتسم ببراءة وكأنما فاته معنى كلماتها.
«سوف أراقب هذا التحول باهتمام».
برغم الضيق والحرج اللذين شعرت بهما اندريا لنوع الحديث الذي دار بينهما استغنمت الفرصة لتفاتحه بالموضوع ووضعت فنجان القهوة من يدها في تأمل واخذت نفساً عميقاً وقالت:
«انك تدرك يا سيد لوفالييه مثلما ادرك انا تماماً ان هذا الزواج لا يمكن ان يتم».
«انك مخطئة يا آنسة وأنا لا ادرك شيئاً من هذا».
«اذا كنت في الماضي قد ابديت موافقتي على موضوع الزواج فلأنني كنت في ظروف صعبة ولا أظنك ترغمني على ايفاء وعد قطعته في ظروف غير طبيعية. فوعد كهذا لا يجب ان يلزم أحداً».
«انك واهمة يا آنستي اذا كنت تظنين بأنني سأتخلى عن الموضوع. فمازلت اصرّ عليه».
انكمشت تحت وطأة النظرة التي ارتسمت في عينيه وسمعته يقول:
«ربما، ولكن هل تظنين ان الحياة لم تقس عليّ؟ فما عرفت في حياتي كلها الا الظلم!».
وبحركة لا شعورية ارتفعت يده لتغطي الندبة فوق خدّه وتابع:
«وماذا تعرفين أنت عن الظلم يا آنسة وما عرفت في حياتك الا الرخاء

والدلال».
اجابته بتهكم وقد نسيت دورها:
«وها أنا اتلقى درسي الأول على يديك!».
هزّ كتفيه بلا اكتراث وقال:
«اليك وحدك يعود اختيار نوع الدرس. فان شئت ان تجعليه سهلا فالأمر في يديك. ولكنني أجد نفسي مضطراً الى ان احذرك بأن الزواج سيتمّ في القريب العاجل جداً. فقد تأجل بما فيه الكفاية».
«ولكن لماذا؟ من حقي ان اعرف السبب الذي يجعلك تصرّ على هذا الزواج».
سكب لنفسه مزيداً من القهوة وبجفاء قال:
«غريب امر هذا الفضول المفاجىء. لا أذكر أنك أبديت أي اهتمام لمعرفة السبب قبل الآن. كنت منشغلة تماماً بمشاكلك الخاصة ولم يكن لديك وقت لأي أمر آخر. ولكن لا بأس سأخبرك الآن. لقد اوصاني اخي بابنه قبل ان يموت ولكنه وضع شرطاً في الوصية يعلّق فيه حقي بالوصاية على زواجي! فلكي امارس حق الوصاية على ابن اخي المتوفي يجب ان اكون متزوجاً. هذا كل ما في الأمر».
وكأن الزواج وحده لا يكفي! فكان اذن على من ستصبح زوجة لهذا الرجل ان تتحول بسحر ساحر الى أم في الوقت نفسه!
«ولكن لماذا وضع اخوك هذا الشرط، وقد كنت عازباً آنذاك؟».
«كنت على عتبة الزواج عندما حرر اخي وصيته».
أجابها بمرارة. وسرح نظرها بدون ان تستطيع كبحه الى الندبة فوق خده. لم تفته نظرتها تلك اذ سمعت صوته المتهكم يقول:
«انك شديدة الملاحظة يا آنسة ولكنك بالتأكيد أقدر بكثير من خطيبتي السابقة على اخفاء مشاعرك».
وبضحكة خالية من أي مرح تابع:
«في يوم واحد فقط فقدت كل من أحببت في هذه الحياة. كانت ساعات لا تنسى. لم يبق لي الا ابن اخي ولا اريد ان افقده ايضا».
«ولكن ربما انك قريبه الوحيد...».
«كلا لست قريبه الوحيد. له خالة وهي عازمة على استئناف حكم

الوصية امام المحاكم. ولن اوفّر لها اي مادة لذلك. لن استطيع محاربتها اذا لم اكن مستوفياً جميع شروط الوصية. ولا اريد ان يصل الأمر الى المحاكم، فلست مستعداً لذلك خاصة ان التعاونية قد ابتلعت تقريباً كل اموالي».

«كم يبلغ من العمر ابن اخيك هذا؟ ربما من الأفضل له ان يبقى مع خالته التي اعتاد عليها و. . .».

شعرت بنظرته كحد السكين وتوقفت عن الكلام ولم تعد تجرؤ على المتابعة. وباقتضاب اجابها:

«كلا، لن يكون احسن حالا معها. بل العكس هو الصحيح انه وريثي الشرعي ومكانه هنا».

«واذا ما رزقت أنت اطفالا فعندها. . .».

وتوقفت فجأة وملأ الاحمرار وجهها ولم تعد تعرف كيف تخفي ارتباكها. لكنه ابتسم وقال:

«الا تخشين ان اطالبك بكلامك هذا في يوم من الأيام؟».

قال هذا وعيناه تخترقانها وتنفذان الى اعماقها ثم تابع وفي صوته رنة استهزاء وتهكّم:

«ستغمضين عينيك عندئذ وتسرحين بفكرك الى بريطانيا كما يقول المثل عندكم أو الى فرنسا في مثل هذه الحالة».

غطت وجهها بيديها وبتعثر وتلعثم قالت:

«لم أكن اعني. . .».

وتوقفت عندما رأت الابتسامة المتهكمة تعلو وجهه لكنه طمأنها قائلا:

«لا تخافي. أنا اصدقك. وفي أي حال لن اطلب منك تضحية بهذا الحجم. انا اعرف ان وجهي هذا كاف ليسبب كوابيس مزعجة لمعظم النساء».

انقبضت نفسها امام المرارة التي عكستها كلماته. من يا ترى تسبب له بكل هذا؟ لعلها خطيئته السابقة. حسناً فعل بالتخلص منها! ولكن ما هذه الأفكار قالت في نفسها. ما لها ولمشاعره. عادت تحاوره علّها تصل معه الى نتيجة مرضية وقالت:

«يبدو انك تألمت كثيراً في حياتك. من منا لم يتألم؟ ولكنه ليس من العدل ان تجعل الآخرين يدفعون الثمن. وهذا الزواج مكتوب له ان يفشل،

فأنت لا تعرفني وأنا لا اعرفك ولا يربطنا أي رابط».

شعرت كأنها كانت تدلي بمرافعة امام محكمة ولكن عمن تدافع؟ عن كلير ام عن نفسها؟ واعتراها شعور غريب لم تدرك كنهه وارتعشت قليلا فقال لها:

«انك ترتعشين. هل تشعرين ببرد؟ اقتربي من المدفأة».

وأشار الى مقعد قرب الموقد وتناول قطعة من الحطب والقاها في النار.

«انني على ما يرام هنا».

كان صوتها مضطرباً وفي عينيها خوف ازعجه فقال لها بضيق:

«مما أنت خائفة؟ اطمئني يا آنسة فزواجنا سيبقى حبراً على ورق. كل ما ابغي هو ان يقتنع المحامون وعندئذ يصبح فيليب تحت وصايتي قانونياً وعملياً وبعدها يمكنك الذهاب حيث تشائين. ستكونين حرة تماماً».

«هذا استغلال لا يجوز».

«آه. وأنت؟ ألم يكن في موقفك مني استغلال. لم تزعجك فكرة الاستغلال آنذاك. ماذا دعوتني عندها؟. . . «خشبة الخلاص» على ما اذكر. لقد كنت صريحة جداً ولم تشعري بأي حرج وأنت تصفين حبك الفاشل وشعور اليأس الذي كان يقلقك. ليس من حقك الآن ان تتذمري اذا شعرت ان تلك الخشبة التي كانت للخلاص تحوّلت في نظرك الى أغلال تقيد حريتك».

لم تعد اندريا تقوى على تحمل المزيد فوقفت وهي تزيح عن جبينها خصلة من الشعر وقالت بتبرم وبنزق ملحوظين:

«ارجو المعذرة فأنا اشعر ببعض التعب وأود ان استريح قليلا».

«بكل تأكيد. سأطلب الى كلوتيلد ان ترافقك الى غرفتك».

ثم قام من مكانه واقترب منها ورماها بنظرة طويلة قبل ان يقول:

«ربما بدت لك الأمور مختلفة غداً. والآن اسمحي لي ان ارجو لك نوماً هانئاً وليلة مريحة».

لم تجب اندريا بشيء واكتفت بهزة من رأسها، لكنه استمر ينظر اليها ثم دنا منها ورفع يده وجعل انامله تلامس شفتيها المنفرجتين. حرصت اندريا على ان تبقى في مكانها حتى لا يفسر تراجعها نفوراً منه. والحقيقة عكس ذلك تماماً. كان عليها ان تعترف. هذا اذا ارادت ان تبقى امينة مع

(ارجو المعذرة فأنا اشعر ببعض التعب وأود أن استريح قليلا)
(بكل تأكيد . سأطلب الى كلوتيلد ان ترافقك الى غرفتك)
: ثم قام من مكانه واقترب منها ورماها بنظرة طويلة قبل ان يقول
(ربما بدت لك الامور مختلفة غدا. والآن أسمحي لي ان ارجو لك نوما هانئا وليلة مريحه)
لم تجب اندريا بشيء واكتفت بهزة من رأسها ، لكنه استمر ينظر أليها ثم دنا منها ورفع يده وجعل انامله تلامس
. شفتيها المنفرجتين
. حرصت اندريا على ان تبقى في مكانها حتى لايفسر تراجعها نفورا منه .والحقيقة عكس ذلك تماما
كان عليها ان تعترف . هذا اذا ارادت ان تبقى امينه مع نفسها
بأن الشعور الذي أعتراها كان ابعد ما يكون عن النفور . شعرت برغبة في الأرتماء على صدرة والاحتماء بين
. ذراعية
قطع عليها صوت الباب استرسالها في تحليل مشاعرها . ووجدت في مدام بريسون عندما ظهرت خشبة خلاص
. فعلية
. سرها ان تد الغرفة المخصصة لها في الطرف المقابل وتفصلها عن الغرفة الرئيسية مسافة ليست قصيرة
فتحت مدام بريسون الباب ووقفت جانباً مفسة الطريق لندريا . كان جو الغرفة هادئا ومريحا . في احدى زوايا موقد
. نار مشتعلة ، وكان الاثاث من الطراز القديم مريحا للعين وخاصة السرير الكبير المصنوع من خشب السنديان
.ربتت اندريا على الفراش بيدها وسرها ان تجد ه وثيراً
. جالت مدام بريسون بعينيها في الغرفة ثم تفقدت الموقد ونظرت الى اندريا وابتسمت لها بمودة وهمت بالخروج
ثم استوقفتها اندريا وسألتها عن مفاتيح السيارة . بدا في أول الامر انها لم تفهم ثم ما لبث وجهها ان اشرق
: بابتسماة عريضة وقالت لاندريا مطمئنة
لا عليك يا آنسة . لا بد ان غاستون أعادها الى السيد لوفالييه لكي يعيدها بدوره الى الشركة التي استأجرتها منه)
.
(اطمئني فالسيد يتدبر كل شيء
قالت اندريا في نفسها وهي ترى الباب يغلق خلف مدام بريسون (بدون شك !) . جلست على حافة السرير وغرقت
في تأملاتها . كانت تأمل ان تحتفظ بالسيارة لبضعة أيام فقط ريثما
. تنجلي الأمور . ولكنه اصبح عايها الآن ان تبقى تحت رحمة اوتوبيس القرية
. قامت عن السرير واتجهت صوب الموقد وارتمت على السجاد امامه ومدت يديها الى النار تدفئهما
. وطغى عليها شعور بالذنب لوفالييه لتطلعه على الحقيقة . استوت في مكانها وابعدت عن رأسها فكرة اللجوء اليه
لم يكن في قلبه مكان للرحمة . سوف تترك هذا المكان غير آسفة وتدع السيد لوفالييه يفتش عن فتاة غيرها يلعب
. معها هذة اللعبة
: لم تدر سببا لارتجافها المفاجئ . واستحوذت على تفكيرها فكرة واحدو
. السرعة . يجب ان تخرج من هذا القصر بأقصى سرعة قبل ان تتطور الأمور على غير ما تشتهي
استفاقت من نومها مذعورة . كان الماء يتساقط عليها تلمست بيديها علبة الكبريت في الظلام وعندما وجدتها
اضائت المصباح بالقرب من سريرها . ويالهول ما رأت ! كان المطر ينهمر بغزارة في الخارج والداخل معاً

. رفعت رأسها الى السقف وطالعتها بقعة كبيرة من الرطوبة حيث قطرات الماء تجد طريقها من شقوق السقف المتصدع
. بعد جهد وعناء استطاعت ان تزيح السرير الضخم قليلا ووجد وعاء وضعته على الارض لالتقاط قطرات الماء المنهمرة
كانت نار الموقد قد خبت اثناء الليل والجو في الخارج عاصفاً . وكانت اندريا تسمع صرير النوافذ . شعرت ببرد اخترق
.عظامها فعادت الى السرسر لعلها تجد فيه بعض الدفء

. عبثا حاولت ان تبعد عن مخيلتها صورة ذلك الوجه ذي الندبة

اغمضت عينيها تطالها صورة بليز لوفالييه بنظرته الثاقبة وخطوط وجهه القوية . قالت لنفسها مئة مرة انه لا سلطة لهذا
الرجل عليها ، فلما اذن تخشاه ؟

وهي سيدة ومالكة لحريتها . فلماذا تخشى غضبة؟ وهي في اي حال لن تكون هناك عندما يكتشف الخدعة التي دبرتها
.ويعرف الحقيقة

. برغم كل هذا الايحاء الذاتي ظل القلق مسيطرا عليها والهواجس تتقاذفها

. عبثا حاولت اندريا ان تبتعد تلك الافكار عن مخيلتها . وصل بها الامر الى ان ترسم في رأسها صورة لمن كانت خطيبته
.تخيلتها فتاة شقراء صغيرة الجم دقيقة التكوين وذات وجه مثير ومميز ، تماما مثل ابنة عمها كلير

. حتى أخلاقها وتصرفاتها تصورتها مثل اخلاق وتصرفات كلير

وباحساسها المرهف ادركت اندريا ان الرح في وجهه لم يكن ليذكر نسبة الى جراح قلبة ونفسة . كانت على يقين ان وراء
ذك القناع من الجفاء

والعدوانية يقبع انسان قدر على الحب والعطاء وكانت له آمال وأحلام وكان يري ان ينشئ عائلة ويغدق على من حوله
. الحنان والعطف

.والأىن عليه ان يقنع بعلاقة سطحية باردة مع امرأة بالطاد يعرفها وان يعلق كل آماله علة فتى ليس ابنه ولا من صلبه

. عندما استفاقت اندريا كانت الدموع تبلل وجهاا ونور الشمس الذهبي يغمر الغرفة ويضفي عليها جمالا ورونقا

. مسحت اندريا دموعها عندما سمعت وقع اقدام مدام بريسون

وسرعان ما انفتح الباب وظهرت كوتيلد تحمل وعاء فيه ماء ساخن وعندما وقع نظرها على الوعاء الذي كانت اندريا قد
وضعته لالتقاط قطرات الماء المنسابة من السقف ، راحت تتكلم بسرعه وقالت كلاما كثيرا فهمت منه اندريا ان جميع غرف
القصر كانت

.على هذة الدرجة من الخراب باستثناء الغرفة التى كان يشغلها بليز

. وضعت اناء الماء من يدها وراحت تحوم حول اندريا وتطلق اصواتا كصوت الدجاجه وهي تنادي صغارها

. ومما قالته انها كانت ستكلف غاتسون ان يصعد الى سطوح القرميد ويصلح ما مكن اصلاحة

. وبعد ان تأكدت ان اندريا لم تكن بحاجة الى أي شيء انصرفت مغلقة الباب وراءها

كان بليز ، عندما دخلت اندريا غرفة الطعام ، جالسا يراجع بعض الاوراق امامه . وامامه رزمة من البريد الذي وصل حديثا
: رفع بصرة اليها وقال .

(ارجو ان تكون الآنسة قد امضت ليلة هادئة)

.ولا حظت اندريا ان ملامحة بدت في وء النهار اكثر انفراجا من الليلة السابقة وانه هو بدا اكثر أنساً

(ليس تماماً)

. اجابته وهي تأخذ مكانها الى المائدة وتتناول قطعة من الكعك

(وهل لي أن اسأل لماذا ؟)

. سألها بتهذيب

(بالطبع)

اجابته واخذت قطعة من الكعك وراحت تغمسها بالمربى ثم تابعت

(الماء يدلف من السقف فوق رأسي)
: قطب جبينه وقال
(سأكلم كوتيلد بالأمر . كان يجب ان تختار لك غرفة غيرها)
(الذنب ليس ذنبها)
: اجابته اندريا وهي تسكب بعض القهوة في فنجانها ثم تابعت
.(يبدو ان جميع الغرف هكذا)
(!! لكن غرفتي لا يدلف الماء من سطحها)
(! بالطبع)
: اجابته وهي ترسل له ابتسامة عذبة . اخذ بضع رشفات من فنجان القهوة قبل ان يقول بصوت متأمل
(وما هو الحل في نظرك ؟ الحل الطبيعي لهذة المشكلة يطرح نفسة بنفسه)
. اصطبغ وجهها لون احمر قان وحاولت جاهدة ان تحتفظ بتلك الابتسامة العذبة وبمرونة لم تعتدها في نفسها
: قالت
(يوجد حل آخر . ما عليك الا تكليف احدهم باصلاح السقف)
: هز كتفيه وقال
(غاتسون يقوم بكل ما يستطيع)
هذا مالاحظته . ولكن يبدو ان الوقت حان لتستعين بشخص محترف الا اذا كنت ترغب في رؤية البيت يتداعى)
(من حولك
اعجبها كلامها وتمنت ان تكون كلماتها قد بددت شكوكه حول دوافعها الحقيقة . فان مهمتها ستهون عليها جداً
اذا نجحت في جعله يقتنع بأنها
. رضخت للامر الواقع وقبلت بالزواج منه
(ربما كان هذا صحيحا)
: قال وهو يتأملها بحيرة واضحة وأضاف
(فلقد سلمت اذن بفكرة الزواج)
(وهل لي خيار غير التسليم ؟)
: سألته بجدية ثم تابعت
(سبق ان شرحت لي بشكل واف ما يمكن ان يحل بي وبأسرتي ان انا نكثت بالوعد . وهذا ما أود ان اتجنبه)
(هذا عين العقل . لا يمكن ان تتصوري ماكان سيلحق بك وبعائلتك من ضرر اذا لم تفي بالوعد)
: اعادت اندريا فنجان القهوة الى المائدة وبتلعثم سألته
(ماذا تعني؟)
(ألا تدرين ما أعني ؟)
: سألها وهو يرسل اليها نظرت حادة ثم تابع
لقد أوضحت لك الامر . والدك رجل مرموق في اوساطة والتوعك الذي أصابه اقلق العديد من اصدقائة . لقد)
سمعت ذلك في الأوساط التي اعتدت ارتيادها
انك تدركين بالطبع بأنه كان علي ان اقوم ببعض التحريات حول محيطك

«لقد أوضحت لك الأمر. والدك رجل مرموق في أوساطه والتوعك الذي اصابه اقلق العديد من اصدقائه. لقد سمعت ذلك في الأوساط التي اعتدت ارتيادها. انك تدركين بالطبع بأنه كان عليَّ ان أقوم ببعض التحريات حول محيطك».

هذا بالضبط ما كانت تخشاه. ان يقوم بتحريات حول آل ويستون ويكشف الحقيقة. وقفز قلبها في صدرها بجنون.

وبعد لحظة صمت قالت:

«بالطبع. ولولا هذا ما كنت لتقدر على تهديدي بهذا الشكل. فصحة والدي في الميزان».

«كل ما في الأمر انني بيّنت لك ما قد يترتب على رجوعك عن وعدك من عواقب قد تكون في غير صالح عائلتك. أنا لم أهددك وتركت لك حرية القرار».

«عسى ان يستحق الانتصار الذي تود احرازه هذه الخسّة التي اعتمدتها لتحقيقه».

«ما علينا الا ان ننتظر لنرى».

اجابها وهو يرشف آخر قطرة في فنجان القهوة ثم وقف ودعاها لمرافقته في جولة تفقدية على ظهور الخيل وقال:

«يسعدني ان ترافقيني في هذه الجولة. فان لك كما سبق ان ذكرت، حقاً مكتسباً في القصر وفي الأرض. وربما كان من المناسب ان تتعرفي الى التغييرات التي نحن في صددها».

أوشكت ان ترفض طلبه وتقول له بأن صباحاً كاملا على ظهر حصان اسوأ حتى من صباح كامل في رفقته ولكنها تذكرت في الوقت المناسب بأنه لا بد ان تكون كلير قد ذكرت له شيئا عن فروسيتها. فلقد كانت فارسة ماهرة وشديدة الولع بالخيل. ولولا خوفها من اثارة شكوكه لتظاهرت بالمرض او بأي شيء من هذا القبيل ولكنها آثرت الحرص وقبلت دعوته قائلة بمرح مصطنع:

«رائع! سأحضر سترتي».

«حسناً. سألقاك عند المدخل الرئيسي خلال عشر دقائق».

كم كانت دهشتها كبيرة عندما لاحظت ان حال الاسطبلات كانت

احسن بكثير من حال البيت. وبحذر علقت على هذه الحقيقة. فقال:

«ربما لأنني اجد في الحيوانات ما لا اجده في البشر».

جاء جوابه سريعاً وقاطعاً.

غاص قلبها في صدرها عندما رأت غاستون يسوق المهرة التي اختارها لها بليز. كانت مختلفة تماماً عن بتلوب الفرس العجوز التي اعتادت اندريا ركوبها في لندن اثناء دروس الفروسية. هذه الغبراء تعدو وتخب وتقذف برأسها يميناً وشمالا وتصهل.

«يا الهي».

قالت اندريا في نفسها وامسكت قلبها بيدها.

«انها بحاجة الى الرياضة».

قال معلنها وبدا - حتى باعتراف اندريا نفسها - وكأنه قطعة من الحصان الذي اعتلاه.

فتشت اندريا بعينيها على غاستون ليساعدها في امتطاء المهرة ولكنه كان قد اختفى داخل الاسطبل.

بدت دلفين صعبة المراس ومشاكسة وتذكرت اندريا كلام كلير عن الجياد من ان لها حاسة خاصة وهي تخضع من يمتطيها لامتحان لتعرف من يسيطر على الآخر، الفرس ام الفارس؟ وبدا واضحاً ان دلفين مدركة تماماً انه لم تكن اندريا قادرة على السيطرة عليها لذلك أخذت حريتها تماماً وما ان اصبحت خارج ساحة القصر حتى خرجت عن الطريق العام وراحت تأكل العشب عن جانبي الطريق. وعندما شدّت اندريا الرسن قليلا حرنت ولم تعد تتقدم. وكانت الطامة الكبرى عندما مرّ طائر فوق رأسها. صهلت بسخط واعتراض وانتصبت على قائمتيها الخلفيتين وكادت ان تقذف اندريا عن ظهرها. وبدل ان تشكر ربها لوجود بليز بالقرب منها في تلك اللحظة بالذات لعنت حظها وهي تشعر بحرج عظيم. أمسك بليز بالرسن وجذبه بطريقة جعلت دلفين تهدأ في الحال.

«شكراً لك».

«انه لا شيء».

اجابها وهو ينظر اليها بتأمل ثم اضاف:

«ما كان يجب ان ادعوك الى الركوب هذا النهار. فأنت ما زلت متعبة

بعد عناء السفر ولم تنالي بعد قسطاً كافياً من الراحة خاصة انك امضيت ليلة مؤرقة».

تبّاً لي قالت اندريا في سرّها ولماذا لم تخطر هذه الحجة على بالي؟ وبصوت جاف أجابته:

«ربما كان هذا صحيحاً».

كان عليها ان تتمالك نفسها وان لا تدعه يراها يائسة وضعيفة. أخذت الرسن بين يديها وتابعت طريقها.

كان الجو من حولها متألقاً والطبيعة في أجمل حلّة وبدت اوراق الخريف التي تشبثت بالأغصان لا تبارحها وكأنها تتحدى شتاء اصبح على الأبواب، جميلة خلاّبة. كان كل شيء حولها يدعوها الى الاستمتاع بيوم جميل وكان من الصعب جداً ان لا تستجيب.

كانت اندريا في نشوة عارمة عندما اوصلتها دلفين اخيراً الى فسحة من الأرض مغطاة بالعشب الأخضر. نسيت خوفها تماماً عندما بدأت تسرع قليلاً ثم تخبّ ثم تجري مطلقة لساقيها العنان وكأنها في ميدان للسباق. لم تعد دلفين في نظرها الوحش الذي اراد تدميرها، بل تحولت الى مخلوق جميل اراد فقط وبطريقته المندفعة، ان يشركها بما كان يجيش في نفسه من فرح وسرور وحب للحياة.

توقفا اخيراً في مكان مشرف يطل على القرية. رأت اندريا البيوت كلها وبدا القصر في وسطها مهجوراً وكئيباً. اختلست نظرة الى رفيقها فهالتها مسحة الحزن التي كست وجهه والمرارة في نظراته.

وقف بقربها ساكناً شارد الفكر وكأنه نسي وجودها تماماً ثم جاءها صوته فجأة يقول:

«هيا».

لم يفارق العبوس وجه بليز ولازمه مزاجه القاتم خلال كل المدة التي امضياها في تفقد الكروم، عكس اندريا التي ابدت اهتماماً صادقاً بكل ما رأته. ولم تحظ منه بأكثر من اجابات مقتضبة. ضايقها صمته وأزعجها ان يتجاهل وجودها بهذا الشكل الصارخ فقالت:

«كانت فكرتك انت ان نقوم بهذه الجولة وعليك في المستقبل ان تحسن اسلوبك في التعليم اذا كنت تريدني ان احفظ شيئاً».

رماها بنظرة جعلت الدم يقفز في عروقها ولم يجب بل ادار حصانه باتجاه القصر وانطلق وهي في اثره.

«وهكذا نأتي الى نهاية الدرس الأول».

قالت اندريا بتهكم وكانا قد وصلا اخيراً الى باحة القصر الخارجية.

جاءها الجواب هذه المرة وكان صوته جارحاً وهو يقول:

«قد يكون الأمر بالنسبة الى فتاة مثلك مجرد مزحة ولكنه لي وللعديد من الناس مسألة حياة او موت. فأنت ترين الأمر بمنظار الفتاة الانكليزية سليلة العائلة النبيلة التي تنعم بالثراء والجاه. هل تعلمين كم عائلة في فرنسا يقبع العجائز فيها وحدهم في بيوتهم لأن اولادهم نزحوا الى المدينة سعياً وراء الرزق؟ هذا الأمر لا يهمك ولكنه يهمني أنا كما يهمني الا أرى هذا البيت الذي تملكه عائلتي منذ مئات السنين، ينهار من حولي. هل تعتقدين انني كنت أسمح بهذا الاهمال لولا ظروف قاهرة فوق طاقتي؟ اسمعي جيداً يا آنسة، ان ما ترينه من دمار وخراب هو نتيجة البغض والكراهية والضغينة وحب الانتقام. انه ليس جميلاً، ايه؟».

«بغض من ولمن؟».

سألته اندريا مستفسرة:

«بغض والدي يا آنسة. كان أخي الاصغر هو المفضل لديه ولم يسامحني ابداً كوني ولده البكر ووريثه الشرعي. لم يكن ليرضى عن أي شيء مما اقوم به من أعمال ولم يبق امامي الا ان ارحل عنه. كان بامكانه ان يمنع هذا الانهيار الذي اصاب القصر ولكنه لم يشأ. لم يكن ليهتم حتى لو تحوّل القصر الى ركام قبل ان يؤول اليّ بالوراثة. احتفظ والدي بكل قرش لنيل ريفيير وهي المزرعة التي كانت تمتلكها العائلة والتي خصّ بها أخي جان بول».

«وهل كانت المزرعة بادارة اخيك؟».

«نعم. كانت حصته من الميراث. والله وحده يعلم انني لم احسده ابداً عليها. وحدث ان صادفته صعوبات كثيرة وكان من سوء طالعه ان عرفت المزرعة سنوات قحط متتالية وتعرّضت المواسم الى آفات عديدة أتلفت المحاصيل وضربت الزرع. وفي النهاية اصدر والدي امره اليّ بأن أذهب الى المزرعة وأصلح ما استطيع اصلاحه. وعندما وصلت كان جان بول على

بعد عناء السفر ولم تنالي بعد قسطاً كافياً من الراحة خاصة انك امضيت ليلة مؤرقة».

تبّاً لي قالت اندريا في سرّها ولماذا لم تخطر هذه الحجة على بالي؟ وبصوت جاف أجابته:

«ربما كان هذا صحيحاً».

كان عليها ان تتمالك نفسها وان لا تدعه يراها يائسة وضعيفة. أخذت الرسن بين يديها وتابعت طريقها.

كان الجو من حولها متألقاً والطبيعة في أجمل حلّة وبدت اوراق الخريف التي تشبثت بالأغصان لا تبارحها وكأنها تتحدى شتاء اصبح على الأبواب، جميلة خلابة. كان كل شيء حولها يدعوها الى الاستمتاع بيوم جميل وكان من الصعب جداً ان لا تستجيب.

كانت اندريا في نشوة عارمة عندما اوصلتها دلفين اخيراً الى فسحة من الأرض مغطاة بالعشب الأخضر. نسيت خوفها تماماً عندما بدأت تسرع قليلاً ثم تخبّ ثم تجري مطلقة لساقيها العنان وكأنها في ميدان للسباق. لم تعد دلفين في نظرها الوحش الذي اراد تدميرها، بل تحولت الى مخلوق جميل اراد فقط وبطريقته المندفعة، ان يشركها بما كان يجيش في نفسه من فرح وسرور وحب للحياة.

توقفا اخيراً في مكان مشرف يطل على القرية. رأت اندريا البيوت كلها وبدا القصر في وسطها مهجوراً وكئيباً. اختلست نظرة الى رفيقها فهالتها مسحة الحزن التي كست وجهه والمرارة في نظراته.

وقف بقربها ساكناً شارد الفكر وكأنه نسي وجودها تماماً ثم جاءها صوته فجأة يقول:

«هيا».

لم يفارق العبوس وجه بليز ولازمه مزاجه القاتم خلال كل المدة التي امضياها في تفقد الكروم، عكس اندريا التي ابدت اهتماماً صادقاً بكل ما رأته. ولم تحظ منه بأكثر من اجابات مقتضبة. ضايقها صمته وأزعجها ان يتجاهل وجودها بهذا الشكل الصارخ فقالت:

«كانت فكرتك انت ان نقوم بهذه الجولة وعليك في المستقبل ان تحسن اسلوبك في التعليم اذا كنت تريدني ان احفظ شيئاً».

رماها بنظرة جعلت الدم يقفز في عروقها ولم يجب بل ادار حصانه باتجاه القصر وانطلق وهي في اثره.

«وهكذا نأتي الى نهاية الدرس الأول».

قالت اندريا بتهكم وكانا قد وصلا اخيراً الى باحة القصر الخارجية.

جاءها الجواب هذه المرة وكان صوته جارحاً وهو يقول:

«قد يكون الأمر بالنسبة الى فتاة مثلك مجرد مزحة ولكنه لي وللعديد من الناس مسألة حياة او موت. فأنت ترين الأمر بمنظار الفتاة الانكليزية سليلة العائلة النبيلة التي تنعم بالثراء والجاه. هل تعلمين كم عائلة في فرنسا يقبع العجائز فيها وحدهم في بيوتهم لأن اولادهم نزحوا الى المدينة سعياً وراء الرزق؟ هذا الأمر لا يهمك ولكنه يهمني أنا كما يهمني الا أرى هذا البيت الذي تملكه عائلتي منذ مئات السنين، ينهار من حولي. هل تعتقدين انني كنت أسمح بهذا الاهمال لولا ظروف قاهرة فوق طاقتي؟ اسمعي جيداً يا آنسة، ان ما ترينه من دمار وخراب هو نتيجة البغض والكراهية والضغينة وحب الانتقام. انه ليس جميلاً، ايه؟».

«بغض من ولمن؟».

سألته اندريا مستفسرة:

«بغض والدي يا آنسة. كان أخي الاصغر هو المفضل لديه ولم يسامحني ابداً كوني ولده البكر ووريثه الشرعي. لم يكن ليرضى عن أي شيء مما اقوم به من أعمال ولم يبق امامي الا ان ارحل عنه. كان بامكانه ان يمنع هذا الانهيار الذي اصاب القصر ولكنه لم يشأ. لم يكن ليهتم حتى لو تحوّل القصر الى ركام قبل ان يؤول اليّ بالوراثة. احتفظ والدي بكل قرش لنيل ربفيير وهي المزرعة التي كانت تمتلكها العائلة والتي خصّ بها أخي جان بول».

«وهل كانت المزرعة بادارة اخيك؟».

«نعم. كانت حصته من الميراث. والله وحده يعلم انني لم احسده ابداً عليها. وحدث ان صادفته صعوبات كثيرة وكان من سوء طالعه ان عرفت المزرعة سنوات قحط متتالية وتعرّضت المواسم الى آفات عديدة أتلفت المحاصيل وضربت الزرع. وفي النهاية اصدر والدي امره اليّ بأن أذهب الى المزرعة وأصلح ما استطيع اصلاحه. وعندما وصلت كان جان بول على

حافة الافلاس. لأنه راهن بكل ما يملك عله يعوّض الخسارة التي تعرّض لها. وأدركت اننا كنا بحاجة الى [illegible]ة لتنقذنا مما كنا فيه».

توقف فجأة وكأنه شعر بما خالجها من مشاعر وأحاسيس وهي تستمع اليه:

«لا ريب ان حديثي عن النزاعات التافهة في عائلتي يبعث في نفسك الملل. ولقد مضى على وفاة والدي [illegible] [illegible]ستان وجان بول وزوجته هما الأخران في دنيا [illegible] الآن. لم يبق غيري. وعليّ ان ارفع الانقاض وابني حياة جديدة لي ولفيليب».

كيف كشف لها بليز هذه المشاعر كلها؟ وكيف سمح لها بأن ترى هذا الجانب من شخصيته وتطلع على ما كان يعاني منه ويتألم لأجله؟ بللت شفتيها الجافتين قبل ان تسأله:

«وماذا حلّ بالمزرعة بيل ريفير؟».

«اتت عليها النيران. شبّ فيها حريق التهم البيت والمزرعة وكل شيء وبقيت الأرض التي وضعت الدولة يدها عليها فيما بعد وأصبحت تدفع لنا قيمة الايجار فقط».

اختلست نظرة الى وجه بليز ورأت الندبة فوق حاجبه أشد بروزاً من أي وقت سبق.

كان غاستون بانتظارها عندما وصلا وبدت المسافة بين ظهر الفرس والأرض شاسعة جداً في نظر اندريا التي كانت عضلاتها المتشنجة تكاد تصرخ من شدة التعب. شعرت بيأس في ظهرها وخشيت ان لا تحملها ساقاها ان هي ترجلت. وجاء بليز كالعادة لنجدتها في الوقت المناسب وقال وهو يحملها كريشة بين يديه وينزلها عن ظهر الفرس:

«اسمحي لي».

تمنت ان تظل بين ذراعيه وشعرت برغبة مجنونة في الالتصاق به وهي تحس بالدفء المنبعث منه.

ولكن ما ان لامست قدماها الأرض حتى تراجعت بضع خطوات الى الوراء والحمرة تكسو وجهها. ومن شدة ارتباكها تعثرت قدمها وكادت تقع لولا ان أسندها بذراعه وهو يقول:

«انتبهي».

ثم وبصوت متباعد انما مجامل أضاف:

«اطلبي من كلوتيلد ان تحضّر لك حماماً ساخناً. انه ينفعك كثيراً. وسأراك على العشاء في وقت لاحق هذا المساء».

حيّاها باشارة من رأسه وأسرع بالانصراف.

ظلت واقفة تراقبه وهو يبتعد. وأزعجها كثيراً هذا التمرد المفاجىء في مشاعرها. انني اكرهه! قالت تعنّف نفسها، ولن أدعه يلمسني مرة اخرى بعد اليوم.

٣ - الوقوع في الشرك

كان عليها، لتصل الى الحمام ان تمر امام المغسلة الضخمة. وانفجرت اندريا بالضحك عندما رأتها للمرة الأولى في الليلة السابقة. اما غرفة الحمام فكانت واسعة وجدرانها من البلاط المزخرف القديم وعليه رسوم جذابة مخروطية الشكل.

استنتجت اندريا من العناية الفائقة التي ابدتها مدام بريسون وهي تسخن الماء، بأن للتمديدات الصحية في القصر مزاجها الخاص لكنها لم تجد ما تشتكي منه في ذاك النهار، اذ كانت حرارة الماء معقولة. وخيّل لاندريا انه بالامكان جعل المكان يبدو اقل تقشفاً لا بل اكثر ترفاً اذا اخفيت الأنابيب ضمن صناديق وفرشت الأرض بالبسط.

وجدت اندريا ان للماء الساخن تأثيراً ملطفاً على الخدوش والجروح التي

كانت تملأ جسمها. وبرغم التشنج الذي شعرت به حمدت ربها الف مرة لأنها لم تصب بالشلل التام، وكان ذلك من قبيل الصدف ليس الا.

برغم كل ذلك لم تكن اندريا قادرة على انكار الحقيقة وهي ان مشوارها في الهواء الطلق ذاك الصباح افادها كثيراً وفتح شهيتها للطعام.

وعدت نفسها بانها ستنصرف الى بعض الأمور الخاصة بعد الغداء. كان عليها مثلاً ان تكتب رسالة لكلير ولكن ما عساها تقول؟

وقالت في نفسها. بما ان بليز لوفالييه يقوم بادارة التعاونية فلا بد ان يكون له مكتب خاص. وربما كان هذا المكتب في القصر. انه المكان الأنسب للاحتفاظ بالرسائل والأوراق الخاصة وعليه فانها ستبدأ جولتها التفتيشية في هذا المكتب بالذات. لم ترتح للفكرة ابداً وشعرت بدناءتها. كان عليها ان تذكر نفسها بالاساليب الملتوية التي لجأ اليها بليز لارغام ابنة عمها على الزواج منه.

كان من العبث تجاهل الشعور الذي أثاره في نفسها وهي في رفقته ذاك الصباح. كان شعورها نحوه مزيجاً من الانجذاب والانبهار. فهي قد امضت طفولة سعيدة في اسرة تشعر بالاستقرار، ولذلك صعب عليها ان تتصور كيف تتعرض عائلة مثل عائلة بليز لكل تلك المرارة وان تسود علاقات افرادها كل تلك الضغينة.

ارتدت اندريا تنورة ضيقة من قماش التويد الذهبي اللون وقميصاً من الصوف الأخضر الغامق وجعلت شعرها على شكل ضفيرة وشبكته بدبوس في اعلى رأسها. وكانت مدام بريسون قد اخذت سروالها الجينز وسترتها لتنظفها.

تناولت بعد ذلك طعام الغداء الذي تألف من حساء الخضار والجبنة البلدية والفاكهة الطازجة من بساتين القصر. وعندما جاءت مدام بريسون لتأخذ الصحون كانت اندريا ترتشف اخر ما في فنجانها من القهوة. قالت لها اندريا:

«دعيني اساعدك انك تقومين باعمال كثيرة».

وبرغم احتجاج مدام بريسون نهضت اندريا واخذت تصف الصحون على صينية حملتها الى المطبخ مبررة عملها هذا بالقول انها اذا كانت فعلاً ستصبح سيدة هذا القصر يتوجب عليها القيام ببعض الواجبات المنزلية.

وفي اي حال لم تكن اندريا تتحمل رؤية غيرها يقوم بخدمتها بدون ان تساهم في العمل، فنزعتها الى الاعتماد على نفسها ما كانت لتسمح لها بغير ذلك.

لم تتبرم مدام بريسون من وجود اندريا في المطبخ بل بدت متشوقة لاطلاعها على كل شيء. ارادت ان تريها محتويات الخزائن من الأواني والأطعمة المختلفة. ولم تتردد بالبوح لها بأن الشيء الوحيد الذي كان يزعجها هو عدم تجهيز القصر بالكهرباء. وشرحت لها ان تلك كانت مشيئة السيد الكبير اي والد بليز. لكن عندما ارادت اندريا ان تطرح بعض الاسئلة تحفظت مدام بريسون ولم تعد تتكلم بصراحة.

ارتبكت مدام بريسون ولم تدر بما تجيب اندريا عندما قالت لها انه كان بودها ان تقوم بجولة استكشافية في القصر ولكنها عادت وانفرجت اساريرها عندما اكدت لها اندريا انها لم تكن بحاجة الى من يرافقها. واجتاح اندريا شعور بالذنب وهي تتناول رزمة المفاتيح من مدام بريسون التي وثقت بها.

مضت ساعتان من البحث العقيم شعرت بعدها اندريا بخيبة امل عارمة. فلقد تناول بحثها كل شبر من الجزء المأهول في القصر. فتشت في غرف كفنها الغبار واجتازت اخرى على رؤوس اصابع قدميها لئلا تكسر صمتاً مخيفاً كصمت القبور وعبرت اروقة علقت على جدرانها صور الجدود في عائلة لوفاليه، خيّل لاندريا ان اصحابها كانوا ينظرون اليها بتعال احتجاجاً على تطفلها عليهم.

صعدت ادراجاً وهبطت اخرى لدرجة انها كادت تسمع صوت عضلاتها تطلب منها الرحمة. بقيت غرفة بليز لوفاليه وحدها لم يطلها البحث. كيف كانت ستبرر وجودها لو ان احداً رآها في الغرفة؟ اما تجوالها في انحاء القصر فيمكن تفسيره في سهولة. يمكنها ان تقول مثلاً بانه مجرد فضول او ربما عزته الى اهتمام علمي بالامكنة الأثرية.

شعرت بألم في رأسها وبطعم الغبار في فمها فارتدت معطفها استعداداً للخروج. كانت بحاجة ماسة الى تنشق الهواء النقي. تساءلت في نفسها اذا لم يكن من الأفضل لها ان تقفل عائدة من حيث اتت قبل ان تتورط اكثر، وما عليها الا ان تجد طريقة ما لدرء الأذى عن كلير ريثما يجن موعد

زواجها، وهو في اي حال بات وشيكاً. سوف تختفي بعد ذلك الى الأبد.

كانت كمن يبحث عن قبرة في القش. لا شك بأن كلير كانت مجنونة ولكن هل هي اقل جنوناً منها عندما وافقت على هذه الخطة الخرقاء؟ لو ان بليز كان هذا الأحمق المتغطرس المغرور الذي رسمت صورته في ذهنها لكان من السهل عليها ان تجد متعة في خداعه والضحك عليه والعبث بعواطفه. ولكن الأمر مع بليز مختلف وهو في اي حال ما زال سيد الموقف وما زالت جميع الأوراق في يديه.

عندما خرجت من الباب الرئيسي، طالعتها شمس اوشكت على المغيب. اعترتها قشعريرة فدست يديها في جيوبها. لا بد ان للقصر حديقة ما، لكن ستجدها حتماً كناية عن ادغال. توقفت في وسط الساحة ونظرت حولها. كانت الكآبة تملأ نفسها وبحركة لا شعورية اقتلعت بعض الاعشاب والحشائش وقذفت بها باتجاه البناء القائم قرب بوابة القصر. فارتطمت باحدى النوافذ قبل ان تنزلق وتستقر على حافتها. وما هي الا ثوان حتى سمعت اندريا صوت نافذة تفتح ويطل منه وجه. انه الوجه الذي كانت قد رأته ورسمت صورتها. رفعت يدها الى فمها في ضيق ولكن بعد فوات الأوان.

كان الوجه الذي اطل من النافذة ملتحيا ودوداً وفوق انفه نظارتان بدون اطار. ارسل اليها نظرة استهجان وألم وقال بالفرنسية ولكن بلكنة انكليزية:

«معذرة يا آنسة، اي خدمة؟».

«انا آسفة لم اكن اعلم ان احداً يقيم هنا».

«انت ايضاً انكليزية!».

قالها باستهجان وغبطة، وحلت ابتسامة مشرقة مكان النظرة المندهشة المتألمة. ثم تابع:

«يا لها من صدفة. لا بد انك سائحة ضللت الطريق. فهذا المكان لا يقصده السواح».

«كلا».

اجابته اندريا وهي تنظر الى القصر بعينين نصف مغمضتين بسبب الشمس في وجهها، وكأم تدافع عن ولدها القبيح سمعت نفسها تقول:

«لكنه جميل!».

«هل ترغبين بكوب من الشاي؟».

بسبب فضولها قررت قبول الدعوة وتوجهت صوب البيت.

رأت اندريا مضيفها عن كثب عندما فتح الباب لاستقبالها، ذلك الباب الكبير المزدان بمسامير ذات رؤوس ضخمة ونافرة. بدا عن قرب، اصغر سناً مما قدرت. ربما كان اكبر منها بستة او ستتين على الأكثر. كان مربوع القامة يرتدي ثياباً عرفت اندريا حالاً انها مستعملة سابقاً. فسرواله الجينز وسترته وحذاؤه، كلها كانت تنطق بماض سحيق.

«الان وودهاوس».

قال مقدماً نفسه ومد يده مصافحاً ووجدت اندريا يده ثابتة وقوية واعجبها ذلك.

«اندريا ويستون».

«يا للغرابة اسمانا يبدآن بالحرف نفسه. يبدو ان هذا لقاء رتبه القدر. تفضلي بالدخول واحترسي وانت تصعدين الدرج. من هنا يا آنسة. تفضلي هذه غرفة الجلوس وانا عملياً اقيم فيها ولذلك تريتها في فوضى».

كلمة «فوضى» لا تكفي، قالت اندريا في نفسها ربما عبارة «فوضى عارمة» قد تفي بالغرض. جالت بعينيها في ارجاء الغرفة الصغيرة. لم يكن اي شيء في موضعه. كان السرير الصغير قرب الحائط من النوع الذي يطوى وعليه اغطية وكيس للنوم. وبالقرب منه رأت اندريا فرناً على الغاز من النوع الذي يحمل باليد وصندوقاً خشبياً فيه معلبات مختلفة وفي وسط الغرفة طاولة مستديرة عليها عشرات الأواني الفخارية منها ما كان نظيفاً ومنها ما كان غير نظيف وعليها كذلك اوراق مبعثرة وكتب وآلة كاتبة تحمل باليد.

راح آلان وودهاوس يفتش بين الاغراض على الطاولة وهو يقول:

«لقد قمت بغسل بعض الأواني امس او لعله قبل ذلك وليس في هذا المكان ماء. علي ان احمله من الاسطبل. وفي اي حال، ليس لي ان اتذمر فهو لا يتقاضى مني اي اجر لقاء اقامتي. علي ان اتكيف مع البيئة وان لم استطع فمعناه انني غير اهل للتقدم في هذه الحياة».

«هل انت كاتب؟».

«ربما اصبحت كاتباً ذات يوم اما الآن فانني اقوم ببحث من اجل كتابة اطروحتي وهي تدور حول حياة فيرسنجيتوركس. انه كما تعلمين من هذه المنطقة».

عادت الى رأسها ذكريات المدرسة يوم كان عليها ان تعارك كتب التاريخ الكلاسيكية واجابت:

«اعرف ذلك وما زلت اذكر قوله: «تقسم بلاد الغال الى ثلاثة اقسام».

«نعم. معظم الناس يعرفون هذه البداية ولكنني معجب بنهاية القصة. احسب انني اشعر بضعف تجاه الخاسرين بشكل عام. لم اكن يوماً من المعجبين بشخصية يوليوس قيصر فأنا اجده موضوعياً جداً لدرجة التجرد من كل عاطفة. واذا ما استعرضنا الأحداث نجد عدوه اللدود ذلك القائد الفرنسي العظيم الذي انهزمت جيوشه امام جيوش القيصر بعد حصار مرير، قادماً اليه من اليسيا عبر التلال حاملاً درعه المذهب معلناً استسلامه. لم يجد قيصر ما يقوله امام هذا المشهد المؤثر سوى بضع كلمات جافة. اسمعيه يصف بلسانه ما دار بينهما».

وتناول كتاباً وراح يقرأ منه:

«جلس قيصر امام المعسكر قرب التحصينات، واقتيد القادة الثلاثة الى حيث كان يجلس والقى فيرسنجيتوركس سلاحه وسلم نفسه».

عندما انتهى من القراءة راح يهز رأسه بألم ثم قال:

«الا تجدينه مجرداً من كل عاطفة؟».

«بالتأكيد».

اجابت اندريا وهي تضحك ثم قالت:

«وهذا ينطبق كذلك على عبارته المشهورة، «لقد اتيت، لقد رأيت، لقد انتصرت». غير انني اجده واقعيا في قوله بانه علينا ان نسلم بالقدر ونحني رؤوسنا امام ما هو مكتوب علينا، وافهم ايضاً لماذا انت تفضل فيرسنجيتوركس عليه. فالبطل الشعبي الذي يتصرف باباء وكبر حتى امام الهزيمة، جدير بالاحترام».

انفرجت اساريره واجابها وهو يبتسم:

«هذا هو شعوري ايضاً. هل رأيت تمثاله في كليرمون فيران؟ يا الهي انه ضخم... اين الشاي؟ لا شك انك تشعرين بالعطش ولكني اخشى انه

لا يوجد لدي غير الحليب المجفف مع الشاي».

جلس الآن على السرير الصغير قبالتها ونظر اليها بسرور ظاهر وقال:

«انه امر رائع ان التقي بشخص يتكلم الانكليزية وانا لا اتقن الفرنسية ومع ان السيد لوفاليه يتكلم الانكليزية بطلاقة لكنه يحب المخالطة ولذلك لا تسنح الفرص لتبادل الحديث معه الا نادراً».

اجابته اندريا بتحفظ جعله يجفل ويسرع بالقول:

«يا الهي، لقد اسأت التعبير فاعذريني. وعلى فكرة، هل انت من وصل بالسيارة ليلة امس؟ وهل تقيمين في القصر؟ لا بد انك احدى صديقاته».

حدقت اندريا في الأرض قبل ان تجيبه!

«ذلك صحيح الى حد ما».

خيم صمت طويل وعندما رفعت اندريا عينيها اخيراً رأت الحمرة تكسو وجه آلان واسرع يقول:

«لا اريد ان ابدو متطفلاً».

«الواقع انني هنا في عمل وعلي ان افاوض السيد لوفاليه بشأن مسألة مشتركة».

انفرجت اساريره كأنه سمع خبراً افرحه فقال:

«الحقيقة انه لا يبدو عليك انك من النوع الذي... ماذا اقول... لساني يخونني مرة اخرى. ما اريد قوله هو انه زير نساء وهو يفضل النساء اللواتي يضاهينه في هذا الميدان ولا يبدو عليك انك مثهن».

وكأنه خشي ان تأخذ كلامه على غير محمل فأسرع يضيف:

«هذا لا يعني انك لست جذابة».

«شكراً لك ايها السيد اللطيف!».

قال ببؤس:

«أوه... انك تدركين ما اعني بدون شك».

رأت اندريا ان تغير مجرى الحديث فسألته عن الاطروحة التي كان يحضرها وعن المعلومات التي جمعها اثناء اقامته في هذا الجزء من فرنسا. وعلمت منه انه مضى على وجوده في سان جان دي روش ستة اسابيع ويتوقع البقاء شهراً اخر. وقال:

«ربما استطعنا تناول العشاء معاً انا لست معدماً تماماً كما قد يتراءى لك،

في بعض المال. وهناك مكان في كرودون والتنقل ليس مشكلة بوجود سيارتك».

«لم تعد السيارة معي».

«وماذا حلّ بالسيارة؟».

«كانت سيارة مستأجرة. ربما عادت الآن الى كلير مون فران».

«انه امر مؤسف. هناك جان - لوك غابرييه. ولديه دراجة نارية. ربما اعارنا اياها. لا تخشي، سنتدبر الأمر».

«هذا رائع».

قالت اندريا وحاولت ان تتصور بليز لوفاليه عندما يتناهى الى سمعه ان زوجة المستقبل كانت تجوب المنطقة على المقعد الخلفي من دراجة نارية مستعارة. امر واحد كانت واثقة منه: لن تكون الدراجة اكثر ازعاجاً بالنسبة اليها من دلفين.

نظرت الى ساعتها وطار صوابها وصرخت:

«يا [illegible] علي ان اذهب، لم اشعر بالوقت يمر».

«سأتصل بك في القريب».

قال لها وهو يواكبها الى الباب. وبعد ان قطعت اكثر من نصف الساحة سمعت صوته يقول:

الى اللقاء يا اندريا».

«رباه!

صرخت بجزع وعادت اليه مسرعة. لم يكن قد اغلق الباب بعد عندما وصلت اندريا فنظر اليها باستغراب وقال:

«هل نسيت شيئاً؟».

«نعم».

اجابته وتابعت:

«نسيت ان اطلب اليك ان تناديني باسم «كلير» ان لم يكن عندك من مانع».

حدق فيها وكأنه خشي ان تكون فقدت عقلها. ولا عجب، قالت اندريا في نفسها. وكان عليها ان تجد تبريراً معقولاً فتابعت بتلعثم:

«انا لا استعمل اسمي الحقيقي في العمل. وهذا يعود لاسباب مهنية

بحتة ولا يعرفني السيد لوفاليه الا باسم «كلير» ومناداتي باسم غيره قد يسبب تشويشاً انا بغنى عنه. تكفيني مشاكل اللغة».

لاحظت اندريا بارتياح ان نظرة الحيرة فارقت وجهه. فمشاكل الاتصال بلغة غير الانكليزية كانت بالنسبة اليه امراً يستطيع ادراكه والتعاطف معه.

«سوف اتذكر ذلك».

قال وهو يرميها بنظرة متفحصة ثم اضاف:

«لا يروقني هذا التغيير في الاسم. فاسم «كلير» لا يناسبك ابداً».

اسرعت اندريا بالانصراف وراودتها فكرة وهي تجتاز الساحة. لو كانت كلير مكانها لوجدت الموقف مثيراً وهي التي تهوى التمثيل واجواء المغامرات والقصص الغريبة.

كانت مدام بريسون تذرع القاعة ذهاباً واياباً عندما وصلت اندريا اخيراً. وحالما وقعت عيناها عليها قالت بقلق:

«اين كنت يا آنسة. سأل عنك السيد عدة مرات».

«يا الهي».

قالت اندريا باستهتار وتابعت بتهكم:

«وهل سأعدم رمياً بالرصاص؟».

تصنعت اندريا مرحاً لم تكن تشعر به بالحقيقة، عندما دخلت الغرفة. كان بليز لوفاليه واقفاً قرب النافذة يدخن سيكارة وكان نظره شارداً ووجهه متجهماً.

«اين كنت؟».

«كنت في جولة استكشافية».

«وهل ذلك يتطلب كل هذا الوقت؟».

سألها وهو ينفث دخان سيكارته بضيق وتبرم.

«لماذا تسأل؟».

سألته وهي تتصنع البراءة ثم تابعت:

«لا بد انك اشتقت لرؤيتي».

خيم بعد هذه المبادلة بالحديث صمت ثقيل قطعه بليز وهو يقول بصوت لم تخدعها رقته:

«احذري يا عزيزتي، قد تجدين اثارتي امراً مسلياً الآن، ولكن العواقب

لن تكون على المستوى نفسه من الاثارة».

بدا في نظرها كالشيطان وكان على اندريا ان تستجمع كل شجاعتها لتستمر في المواجهة وقالت وهي نفسها غير مقتنعة بصدق كلامها:

«ان تهديداتك لا تقلقني وانا لا اكترث لها، واي امر اسوأ من ارغامي على الزواج؟ ولقد رضخت للأمر الواقع».

«الا يوجد اسوأ من الزواج؟».

سألها بتهكم واطلق ضحكة خافتة جعلت الدم يجمد في عروقها ثم تابع:

«يبقى ان تتعلمي الكثير يا عزيزتي كلير برغم كل هذه الحنكة التي تتبجحين بها».

«ما الذي قالته كلير في رسائلها يا ترى؟» سألت اندريا نفسها وشعرت بيديها تتقبض بدون ارادتها واغاظها اكثر انه رآها. ثم سألها فجأة وبنبرة طبيعية:

«وهل اعجبك القصر؟».

ولم تملك اندريا الا ان تلاحظ تقلب مزاجه. اذ كان مثل طقس اوفيرن، يصعب التنبؤ به. وباحساسها المرهف وشعورها المتطير ادركت ان وراء هذا الاهتمام المفاجيء امراً لا تعرفه. فربما يعرف الحقيقة ويريد ان يتسلى.

«انه مثير».

«ولكن لا بد انك وجدت الزيارة لبيت الحارس اكثر اثارة».

ادركت اندريا سبب لعبة القط والفأرة التي كان يلعبها معها وبوضوح واعتداد اجابته:

«كانت زيارة ممتعة جداً. اشكرك على اهتمامك، ولكنني اتساءل لماذا لم تخبرني بوجود نزيل فيه».

«ربما لانني واثق من مقدرتك على استكشاف هذه الأمور بنفسك».

ولم ينقذها من المأزق الذي وجدت نفسها فيه الا دخول مدام بريسون الغرفة حاملة معها طعام العشاء. التقطت اندريا الملعقة بيدها وقالت متابعة الحديث:

«ما زلت اجهل سبب عدم ذكر هذا الأمر امامي وانت تعلم بدون شك ان وجود احد ابناء وطني على قاب قوسين مني امر يثير اهتمامي».

«ربما كان هذا هو السبب».
«يا للوقاحة!».
صرخت، وباستنكار سألته:
«وماذا تعني بالضبط يا سيدي؟».
«اعني يا جميلتي ان سلوك مدام لوفالييه في المستقبل يجب ان يكون فوق الشبهات بصرف النظر عن حماقات الماضي».
صمتت برهة قبل ان تجيبه بصوت مضطرب:
«هذه اهانة!».
«لماذا؟ هل لأنني اشير الى امور انت نفسك لم تبقها سراً؟ اكملي عشاءك الآن فانك نحيلة جداً».
«يؤسفني اني لا اروقك يا سيدي وانت من اعتاد اجمل النساء!».
«لا تدعي هذا يزعجك يا عزيزتي».
اجابها بلطف لم تعتده منه ورفع حاجبيه وبنبرة لا تخلو من الدعابة اضاف:
«لا شك بانك جذابة بدون هذه الثياب!».
«لكن، ليس بالنسبة اليك بالطبع!».
«آه، لم اكن ادري انك ترغبين في ارضائي، ليس على هذا النحو في اي حال».
اجابها وهو ينحني ليسكب في كوبها مزيداً من عصير الفاكهة الطازجة وتابع:
«يمكنك ان تنزعي هذه الثياب اذا كنت حقاً ترغبين في معرفة رأيي!».
«وانت يمكنك ان تذهب الى الجحيم!».
قالت وهي تدفع طبق الحساء وتريق بعضاً من محتوياته على المفرش الأبيض.
«لقد كنت هناك وعدت لتوي!».
اجابها بنبرة جعلت موجة الغضب التي اجتاحتها تنحسر فجأة ويحل مكانها شعور لم تدرك كنهه.
مرت فترة من الصمت قبل ان يوجه اليها اي كلام ثم، وبدون مقدمات وكأن الدقائق الأخيرة لم تكن وكأنه يتابع حديثاً عادياً، سألها:

«وكيف وجدت المؤرخ الشاب؟».
«انه يبدو ملماً بالموضوع الذي اختاره».
اجابته وهي تجبر نفسها على ان تحذو حذوه وتتكلم بهدوء ثم تابعت:
«اخشى انني لم استطع مجاراته في الحديث».
واسرعت تضيف على طريقة كلير:
«وفي اي حال ليس موضوع حرب الغال هو المفضل لدي».
«وكلا؟ ربما لأن تقنية الرومان العسكرية لا تروق لكل الناس ولكن الدرس الذي تلقاه القيصر على ايدي اهل اوفير ن مفيد وعليك ان تحفظيه وهو ان الخصم من اهل اوفير ن هو خصم مر».
لم تستطعم اندريا بالعشاء الفاخر الذي قدمته لها مدام بريسون وعندما اقبلت هذه لتأخذ الاطباق كانت فكرة الهرب مستحوذة تماماً على ذهنها وكانت قد وصلت الى الباب عندما اوقفها صوت بليز يسألها:
«الى اين انت ذاهبة؟».
«الى غرفتي».
اجابته وهي ترسل اليه من عينيها العسليتين نظرة شفافة ثم استطردت:
«انني اشعر بالتعب».
«اجلسي من فضلك هناك بعض الأمور اود ان احدثك بشأنها».
«ما الذي تريد ان تقوله لي يا سيدي؟».
«اود قبل كل شيء ان اعطيك هذا».
وناولها علبة صغيرة من المخمل اخذتها منه بشكل آلي وفتحتها. شهقت عندما رأت الخاتم في داخلها الذي كان يستقر على قاعدة غلفت بقماش الساتان. لم تكن قد رأت لذلك الخاتم مثيلاً. كان الحجر الكبير في وسطه من الياقوت الأحمر النادر وحوله احجار من الماس على شكل زهرة غريبة وكان يشع ببريق يخلب الابصار.
«ما هذا؟».
«انه خاتم الخطوبة الخاص بعائلة لوفالييه».
اجابها بلهجة من نفد صبره وبنبرة آمرة اضاف:
«ضعيه في اصبعك».
«كلا!

صرخت وهي تغلق العلبة بانامل مرتعشة.

ضاقت عيناه بشكل ينذر بالخطر واجابها:

«لطفاً، اطيعيني».

«لا استطيع. ليس من حقك ان تطلب هذا».

«ما هو من حقي وما هو ليس من حقي، موضوع سنبحثه في وقت اكثر ملاءمة. والآن ضعي الخاتم حول اصبعك».

«من المفروض ان يكون هذا الخاتم عربون حب وليس بيننا اي حب!».

كتم في نفسه لعنة كادت تفلت من بين شفتيه وقال:

«حسناً، اذا كان ذلك ما تريدين فلا بأس».

ولم تدر اندريا ماذا كان يدور في خلده ورأته يقوم من مكانه ويتجه صوبها. اخذ يدها بين يديه وتأمل الأنامل الرقيقة ملياً قبل ان يرفعها الى شفتيه ويطبع على راحتها المنبسطة قبلة دافئة بعثت في جسمها قشعريرة عذبة، وببطء متعمد انتقلت شفتاه الى رسغها وراح يقبله بنهم ولذة. اغمضت عينيها. لم تكن تريده ان يرى ما ارتسم فيهما من شوق ولا ان يشعر منها بخفقات قلبها المتسارعة. وشعرت ببرودة الخاتم وهو ينزلق في اصبعها.

ظلت ساكنة لا تتحرك وعيناها مغمضتان حتى بعد ان شعرته يبتعد عنها. عندما فتحت عينيها اخيراً كان يقف قرب الموقد مسنداً ذراعه على حافته في الوضع نفسه كما رأته عندما التقيا لأول مرة. كان شارد الفكر وعلى وجهه ارتسم حزن عميق. عندما رآها تنظر اليه قال بعصبية:

«آمل ان يكون هذا قد حقق بعض توقعاتك».

«لم اكن اتوقع شيئاً».

اجابته بصدق واحنت رأسها بأسى وهي تقول:

«ولكنك بالتأكيد تستطيع ان تحسبه انتصاراً اخر ايها السيد. والآن هل اصبح بامكاني الانصراف؟».

«دقيقة واحدة من فضلك... سنعقد زواجنا بعد غد».

شعرت اندريا بقواها تخور واعترتها رجفة شديدة. وبصوت بدا غريباً حتى في اذنيها سألته محاولة كسب الوقت:

«ولم العجلة؟ هل يجب ان يتم الزواج بهذه السرعة؟».

«نعم، لقد ابلغني المحامون ان سيمون عازمة على الطعن بوصية جان - بول، ولهذا السبب علي ان اكون مستعداً لها».

«ولكن هناك بعض الشكليات القانونية. الا يلزمك بعض الوقت لاتمامها؟».

«يبدو ان ذاكرتك ضعيفة يا آنسة. هل نسيت انني اتممت جميع الترتيبات منذ اسابيع؟».

حبست اندريا أنة كادت تفلت من شفتيها. يبدو ان كلير لم تكن صريحة معها واخفت عليها مدى تورطها. ولكن لسوء الحظ ادركت اندريا ذلك متأخرة. ومع هذا لم تشأ ان تضيع وقتها في تحديد المسؤوليات والقاء التهم. كان عليها ان تفكر بروية واتزان وان تجعله يعتقد بانها رضخت للأمر الواقع واستسلمت لمصيرها.

«ليتك انذرتني قبل الآن. فما زلت بحاجة الى بعض المشتريات».

«لا ارى مشكلة، فبوسع غاستون ان يأخذك الى كلير مون فران غداً».

«شكراً لك».

نهضت من مكانها وهي تبتسم تحية المساء وانسحبت. توجهت الى الطابق العلوي حيث غرفتها وكان عليها ان تمر من امام باب غرفة بليز. وعندما وصلت وقفت تتأمله والافكار تتقاذفها. لا بد ان رسالة كلير في مكان ما وراء هذا الباب الموصد. وارتفع صوت في داخلها يحذرها ويقول لها بانها ليست مدينة لكلير بهذا المقدار. ولكن ماذا عن عمها وامرأة عمها؟ أليس من واجبها ان تحميهما من خيبة امل كبيرة كانت بانتظارهما ان هي اخفقت في المهمة التي ارتضت القيام بها؟».

ادارت وجهها ونظرت الى الوراء. لم تر احداً ولا حتى بليز. ولكن لماذا يصعد الى غرفته الآن؟ الم تره يستعد لقضاء السهرة في الطابق الأرضي وقد احضر زجاجة شراب وكوباً؟

ظهر على شفتيها طيف ابتسامة. انها فرصتها ويجب ان تغتنمها. خلعت حذاءها واجتازت المسافة بين الدرج والغرفة على رؤوس اصابعها وهي تشعر بحرج كبير ويسخف موقفها. ادارت مسكة الباب برفق فانفتح بسهولة. وبحذر بالغ دخلت واغلقت الباب وراءها وجالت بنظرها في

ارجائها.

لم تكن الغرفة بالحجم الذي تصورته. وربما بدت اصغر مما هي فعلاً لضخامة السرير الذي احتل معظمها. وكان للسرير اربعة اعمدة تحمل مظلة تتدلى منها ستائر حمراء مذهبة ثبتت الى الوراء بعروة جذابة. نظرت اندريا الى السرير بارتباك. ترى كم من الأجيال تعاقبت على هذا السرير وكم شهد من الولادات ومن الوفيات؟

على احد الكراسي رأت اندريا ثياب الركوب التي كان يرتديها ذاك الصباح ملقاة باهمال. شعرت بدافع غريب يدفعها لترتيبها في الخزانة حيث مكانها الطبيعي ولكنها اوقفت نفسها عن هذا العمل. بدت المنضدة ذات الادراج العديدة افضل مكان لحفظ الرسائل. اتجهت اندريا اليها وجلست على كرسي صغير امامها وراحت تفتح الادراج واحداً بعد الأخر. وكانت خيبتها تزداد كلما انتهت من تفتيش احدها. بقي واحد لم تستطع فتحه. وبما ان جميع الادراج التي فتحتها كانت تحتوي ثياباً داخلية، ظنت اندريا ان الثياب داخل ذلك الدرج ثمينة جداً والا لماذا يقفل عليها بالمفتاح؟ حاولت ان تخلعه وراحت يدها تعبث بقبضته. تسمرت فجأة في مكانها وشعرت ان شخصاً يراقبها. رفعت رأسها ورأت في المرآة امامها، التقت عيناها بعيني بليز لوفاليه.

«كان علي ان اخيب ظنك يا آنسة فجميع اوراقي الخاصة موجودة مع المحامي في كلير مون فران. واظنك تبحثين عن رسالة ابنة عمك».

ظنت لأول وهلة ان اذنيها كانتا تلعبان عليها حيلاً. غير ان ابتسامة الشماتة التي ارتسمت فوق شفتيه جعلتها تدرك معنى ما قال. وبصوت مضطرب واجهته قائلة:

«كنت على علم طوال الوقت؟ كيف عرفت؟».

«لقد علمت منذ وطئت قدماك هذا المكان. وهل كنت تظنين انني اقوم بكل التحريات حول ابنة عمك ومحيطها وعائلتها واستثني شكلها؟ والفرق بينكما يا عزيزتي شاسع».

«ولكنك لم تبد انك تعرف!».

«وجدت الأمر مسلياً. احببت ان اعرف مدى استعدادك للاستمرار بهذه اللعبة. ولكن رضوخك المفاجيء اثار شكوكي».

«سأغادر هذا المكان في الحال. هل تسمح لغاستون بتوصيلي الى كلير مون فران؟».

«ولكنك ستجدين جميع المتاجر مغلقة في هذه الساعة المتأخرة».

«وما دخل المتاجر؟».

«لا يمكن ان تكون ذاكرتك في مثل هذا الضعف! هل نسيت؟ ستتزوج بعد غد».

«هل جننت؟».

«بل انني ما زلت في كامل قواي العقلية. لم يتغير اي شيء. ما زلت بحاجة الى زوجة وبما ان ابنة عمك غير مستعدة للالتزام بوعدها فستحلين انت مكانها يا اندريا. اليس هذا اسمك؟».

«انك لن تستطيع!».

«بل استطيع فجميع التحريات التي اجريتها اظهرت ان عمك ينظر اليك كابنة ثانية. اليس هذا صحيحا؟».

وعندما لم يتلق اي جواب تابع حديثه قائلاً:

«اعتقد ان تورطك في فضيحة علنية سوف يسيء الى عمك تماماً كما لو كنت ابنته، وانت بالتأكيد لا ترغبين في الاساءة اليه والى صحته».

«ليس هناك من فضيحة حول اسمي. فانا لم اتورط في اي شيء ولم اقطع وعوداً خطية او غير خطية».

اجابته وهي تحدق في وجهه.

«هناك عدة انواع من الفضائح يا عزيزتي هناك ظروف قد تجعلك تتمنين الزواج من اي انسان حتى مني انا. وليس هذا هو المهم. المهم هو انني اعدك بانك اذا لم تتزوجي مني بعد يوم غد فانني سوف اجر اسم عائلتك الى المحاكم والصحف البريطانية. وفي يدي ورقة رابحة هي فيليب. فانتم معشر الانكليز تأخذون بقصص الأطفال».

«ارجوك يا بليز، ذلك كفيل بتحطيم عمي ماكس وتحطيم كل آماله واحلامه».

«الأمر بيدك يا اندريا افعلي ما طلبته منك واقبلي بأن تكوني زوجتي ولو الى حين».

«وهل ستدعني اذهب، بعدها؟».

تفرس في وجهها واطال النظر الى الشفتين المرتعشتين والى العينين الغارقتين في الدموع واكتسى وجهه بمسحة من الكآبة والحزن واحنى رأسه وقال:

«حسناً يا آنسة. سنة او ربما اقل من عمرك لقاء سعادة طفل. هل اتفقنا؟».

«اتفقنا».

اجابته وجاء صوتها كرجع الصدى.

٤ - مأزق من صنع يديها

أوت اندريا الى فراشها منهكة وسرعان ما غلبها النعاس وراحت في سبات عميق. وعندما استفاقت في صباح اليوم التالي كان شعاع الشمس يغمر الغرفة بنور ذهبي، والسيدة بريسون تقف بجانب سريرها وتحمل بين يديها صينية كبيرة.

«يا الهي».

قالت اندريا وهي تجلس في سريرها وتبعد شعرها عن وجهها:

«لا بد انني اطلت النوم اكثر مما ينبغي. اعتذر اذا كنت قد سببت لك ازعاجاً».

تغضن وجه السيدة بريسون بابتسامة عريضة وبكلام كثير افهمت اندريا بأن اي جهد تبذله تجده قليلاً بالنسبة الى عروس السيد لوفالييه.

لم تكن اندريا شديدة الحماس لملاقاة ذاك النهار ولكن برغم كل ما كان يخالجها من شعور بالقلق، وجدت الكعك الساخن الذي احضرته السيدة كلوتيلد بريسون لذيذ المذاق وتناولته بشهية.

«هل ترغب الآنسة ان احضر لها الحمام؟».

سألتها مدام بريسون التي كانت تحوم حولها باهتمام وأردفت:

«لم يبق متسع من الوقت».

«متسع من الوقت لماذا؟».

سألتها اندريا وهي ترجع فنجان القهوة الى الصينية، رمتها كلوتيلد بنظرة عاتبة وقالت:

«للذهاب الى كليرمون فران مع السيد لوفالييه. انه ينتظرك منذ الصباح وهو سيصطحبك لشراء ما يلزمك».

ظلت اندريا ساكنة برهة، ثم دفعت صينية الطعام جانباً وشكرتها وقالت لها باقتضاب وبدون مقدمات:

«لا اريد الذهاب. ارجو ان تبلغي ذلك للسيد، فأنا اشعر بألم في رأسي».

«لكن يا آنسة، الغى السيد بعض المواعيد المهمة ليضع نفسه تحت تصرفك هذا النهار. وبالاضافة الى هذا فان كليرمون فران مدينة جميلة والطريق اليها ممتعة كما ان الهواء النقي يريحك من الصداع».

«اعتقد انني اعرف ما هو نافع لي».

اجابتها اندريا بعصبية وشعرت بأن تصرفها كان صبيانياً ولكنها لم تبال، فلن يضيرها في شيء ان تبدو كطفلة اذا كان ذلك يخلصها من قضاء يوم كامل مع بليز لوفالييه. وتابعت:

«اشكريه بالنيابة عني. يمكنك ايضاً ان تعتذري منه اذا كان هذا يريحك. ولكن عليك ان تقولي له بانني لن اذهب معه الى اي مكان. بالاضافة الى ذلك فلقد غيرت رأيي، ولست بحاجة الى اي شيء».

بدا واضحاً ان تصرف اندريا لم يرق للسيدة بريسون التي اربكها ما يبدر من سيدة القصر العنيدة فحملت الصينية وانصرفت.

راحت اندريا تتقلب في فراشها وتضغط على الوسادة بعصبية. انها تعرف لماذا يصر بليز على اصطحابها الى كليرمون فران. انه يريد رؤيتها

تتعذب. اراحت رأسها على ذراعيها وحدقت في الفراغ بعينين لا تريان شيئاً. استقر نظرها على الخاتم حول اصبعها وبدون ارادة منها شعرت باصابعها تطبق على راحة يدها التي قبلها بليز في الليلة السابقة.

سمعت طرقاً على الباب فاستدارت في فراشها وجعلت نفسها في مواجهته. لم تكن على استعداد لسماع محاضرة اخرى من السيدة بريسون في محاولة جديدة لاقناعها بمرافقة السيد. وبنزق قالت:

«ادخل».

ودخل بليز لوفالييه بقامته المديدة واتجه نحو السرير بخطوات سريعة ووقف برهة ينظر اليها قبل ان يقول:

«الى متى علي ان انتظر؟».

شعرت اندريا وكأنها تذوب تحت وطأة نظراته وبحركة غريزية تناولت الغطاء ولفته حول كتفيها وبصوت مضطرب قالت:

«بامكانك ان تذهب ساعة تشاء ايها السيد. الم توصل لك السيدة بريسون رسالتي؟».

مط شفتيه بشكل فهمت منه اندريا مقدار الاحترام الذي يكنه لتلك الرسالة وقال بجفاء:

«يحسن بك ان تسرعي. فأمامنا رحلة طويلة قبل ان تصل الى كليرمون فران».

«تبين لي اني لست بحاجة الى اي شيء، واوضحت هذا للسيدة. وفي اي حال شكراً لك. والآن، أريد، من فضلك، ان اخلد الى الراحة».

اجابت اندريا وعيناها تنطقان بالخيبة التي كانت تشعر بها.

لم يتفوه بأي كلمة واتجه نحو الخزانة الضخمة وفتحها وراح يستعرض الثياب المعلقة بداخلها. ولم تملك اندريا الا ان تلاحظ كم بدت ثيابها هزيلة بالنسبة الى الخزانة الضخمة. بعد برهة سمعته يسألها:

«وأين ثوب الزفاف؟ اني لا اراه».

«ثوب الزفاف؟».

سألته اندريا مشدوهة. وبدا السؤال حتى في اذنيها فارغاً وسخيفاً. للمرة الثانية مط شفتيه وبفظاظة قال:

«وهل انت بحاجة الى تذكير آخر؟ قلت لك سيعقد الزواج غداً

ويلزمك ثوب للمناسبة».

«انا لا ارى ضرورة لذلك انه في اي حال ليس زواجاً تقليدياً».

«انك تخدعين نفسك يا آنسة».

قال لها ويداه على خاصرتيه. ثم اقترب من السرير وراح يتأملها وقال:

«سوف يكون احتفالاً تقليدياً الى ابعد الحدود. وزواجي بالنسبة الى اهل القرية هو حدث بحد ذاته. وعليك ان تؤدي دور العروس السعيدة باتقان اولاً في كرودون حيث يتم توقيع عقد الزواج المدني، وبعد ذلك في كنيسة القرية حيث ستجري مراسم الاحتفال الديني. لن يكون ذلك صعباً عليك فانت تجيدين التمثيل. وسوف ترتدين بالطبع ثوباً ابيض وطرحة بيضاء كأي عروس في يوم عرسها وهذا في اي حال ما يتوقعه اهل القرية ولن نخيب آمالهم».

«لن افعل شيئاً من هذا».

صرخت في وجهه وصدرها يعلو ويهبط من شدة الانفعال. ثم اضافت وكأنها تبرر انفجارها:

«وهذا في رأيي منتهى الرياء!».

«لماذا؟ الأن اللون الأبيض لا يصلح لحالتك؟».

لم تعد تحتمل المزيد وصرخت في وجهه بضراوة:

«ايها الـ. . . . اخرج من غرفتي!».

«لي كل الحق بوصفي خطيبك، ان ابقى في الغرفة».

قال لها بهدوء، ووجد من المناسب ان يذكرها ببعض الحقوق والواجبات المترتبة على الخطيبين فتابع:

«للخطيب ما للزوج تقريباً من حقوق يا عزيزتي ونصيحتي لك ان لا تدعي هذه الحقيقة تغيب عن بالك. والآن ارتدي ثيابك، فلقد اضعنا من الوقت ما فيه الكفاية».

وبحركة مفاجئة سحب الغطاء بدون ان يترك اي مجال للمقاومة. اطلقت اندريا صرخة غضب واسرعت يداها الى قميص نومها المغضن لكنه اتجه بعد ذلك الى الخزانة وعاد يحمل بين يديه طقمها القمحي اللون وبضع قطع من الثياب الداخلية وقذف بالجميع بدون شكليات ولا مراسم على السرير. نظر الى ساعته وقال لها:

«امامك خمس دقائق لتكوني جاهزة. سأوافيك في الطابق الأرضي وأرجو ان لا تقولي لي بعد ذلك بانني لم احذرك».

وبعدما خرج شعرت انه ليس امامها اي خيار فهرولت الى الحمام واغتسلت بسرعة وراحت تحضر نفسها كما طلب، خشية ان ينفذ تهديداته.

لم يقرع الباب هذه المرة وعندما دخل كانت اندريا في كامل ثيابها ما عدا وشاحاً من الحرير الوردي كانت تحاول ان تلفه حول عنقها.

التقت عيناها بعينيه في المرآة وبرغم العبوس الذي كان ما زال يكسو وجهه لمحت اندريا نظرة اعجاب وقال:

«هل انت جاهزة؟».

«لم يبق الا ان اصفف شعري».

اجابته بصوت مرتعش وتمنت الا يكون قد لاحظ ذلك الارتعاش.

اقترب منها ووقف خلفها تماماً وتناول الفرشاة وراح يمررها على شعرها الغزير برفق ثم اخذ بعض الخصلات بين انامله ورفعها حتى بان عنقها كله ثم تركها تنساب كالشلال على كتفيها وقال:

«اتركيه مسدلاً هكذا».

وللمرة الثانية في تلك اللحظات القليلة التقت نظراتهما في المرآة.

تناولت حقيبة يدها بيد مرتجفة وقلب واجف وقالت:

«هل نذهب؟».

«كما تريدين».

وكان في صوته وعلى وجهه لغز حيرها. رمى الفرشاة من يده ووقف جانباً مفسحاً لها الطريق لتتقدمه. لم تكن متأكدة من ان ساقيها قادرتان على حملها لكنها سرعان ما تمالكت نفسها ورفعت رأسها بشموخ وسارت امامه.

لم يدم هذا الهدوء طويلاً فما ان وصلا الى الباحة الخارجية حتى وقعت عيناها على ما جعلها تصرخ من الغيظ. كانت السيارة التي جاءت بها من باريس جاثمة امام الباب. سألها وكأنه يلهو:

«لو انني فقط كنت اعلم انها ما زالت هنا. أليس هذا ما تقولينه الآن في سرك؟».

وجدت ان الصمت ابلغ جواب فصعدت في المقعد الأمامي بدون ان تجيب لكنها لم تتمالك نظرة متوعدة رمته بها.

كان عليها ان تقر بمهارته في قيادة السيارة فالمنعطفات والانحناءات الخطرة التي جعلت قلبها يقفز الى حلقها وهي في طريقها الى سان جان دي روش لم تكن شيئاً بالنسبة اليه.

لم تستطع اندريا ان تصمد طويلاً امام الجمال المتدفق من كل شيء حولها وانهارت مقاومتها واسترخت في مقعدها تنعم بالدفء المنبعث من اشعة الشمس التي غمرت وجهها وعنقها. اختلست نظرة الى بليز. . . هل كان عاقد العزم على الاستمرار في الصمت؟ يا لقوة ارادته! قالت في نفسها ويا لضعف ارادتي!

شعرت بغصة وهي تنظر الى وجهه ذي التقاطيع القوية والخطوط الشامخة. ولم تكن ترى الندبة من حيث كانت جالسة. واعتقدت اول الأمر ان اهتمامه كان منصباً على الطريق امامه ولكن سرعان ما صدمتها تلك المسحة من الحزن التي عاد وجهه واكتسى بها فادارت نظرها اليه ولم تعد تحوله عنه.

«بما تحدقين يا آنسة؟ هل تتساءلين لماذا لا اخضع لجراحة تجميلية؟».

«لم يخطر هذا الأمر في بالي اطلاقاً ولكن الآن وبما انك اخترت ان تفتح هذا الموضوع فاني اسألك بالفعل لماذا؟».

«ربما لانني اود ان احتفظ بما يذكرني. . . .».

«يذكرك بماذا؟».

«بأن لا شيء يدوم وخاصة تلك المشاعر التي نسميها حباً».

«ولكنها نظرة متشائمة وفيها الكثير من عدم الثقة».

«انه درس تعلمته من الحياة».

ثم غرق في صمت عميق لم تجرؤ اندريا على اختراقه. وجلست قربه ساكنة وشرد فكرها في متاهات بعيدة وراحت الافكار تتقاذفها. لم كل هذه المرارة؟ اسبب الوقوف على عتبة زواج لم يتم؟ ام بسبب خطيئة تافهة جعلته يحكم على نساء الأرض كلهن من خلالها؟ لا بد ان حبه لها قد ترك في نفسه اثاراً لا تمحى والا لماذا يغرق نفسه في كل ذلك الحزن وتلك المرارة؟ مخطىء هو اذا ظن ان الندبة في وجهه تقلل من جاذبيته وهل يعقل

ان لا يكون قد شعر بانجذابها نحوه؟

وباحساسها المرهف شعرت اندريا ان الندبة فوق خده لم تكن شيئاً بالنسبة للمجروح في نفسه والتي لا شفاء له منها ربما الا بقدر كبير من الحنان والعاطفة. هي بالطبع لن تكون هناك لتمنحه اياها. كم احزنتها تلك الفكرة وكم حاولت عبثاً ان تذكر نفسها بأنها ليست سوى سجينة في قصره. ولكن كان عليها ان تواجه الحقيقة: فهي لن تكون حرة بعد اليوم.

اوقف بليز السيارة في شارع جانبي هادىء. وكان عليهما ان يذهبا سيراً على الاقدام الى شارع المرفأ حيث المتاجر الفخمة. ارادت اندريا ان تتمهل امام بعض الواجهات التي تعرض الاشياء الاثرية الا ان بليز استمر يسير بسرعة ولم يتح لها مجالاً للتوقف وكان عليها ان تركض تقريباً لتجاريه في مشيته السريعة. وعندما وصلا اخيراً الى المكان المنشود كانت اندريا تلهث من شدة التعب. استقبلتهما عند المدخل امرأة في العقد الرابع من العمر ذات عينين ناعستين واناقة مفرطة.

غرقت السيدة في حديث هامس مع بليز. وكان واضحاً ان اندريا بالذات كانت موضوع هذا الحديث وازعجها جداً ان تكون مستثناة من الحوار المفروض ان يعنيها هي قبل سواها. اولم يكن ايضاً من الذوق السليم ان يشركاها معهما؟

بعد ان فرغا من الحديث رمت المرأة اندريا بنظرة متأملة قبل ان تقول لها بكل تهذيب:

«اتبعيني من فضلك يا آنسة».

وتقدمتها الى غرفة فسيحة غطيت جدرانها بالمرايا وما هي سوى لحظات حتى اقبلت على الغرفة صبية تحمل على ذراعها عدداً من اثواب الزفاف البيضاء ملفوفة في اوراق شفافة.

كان على اندريا ان تسجل موقفاً فقالت في الحال وهي تشير بيدها الى الفساتين:

«لا اريد ثوباً ابيض».

لم تكن اندريا ترغب في السماح لاي كان ان يجعل منها دمية للعرض. وثوب الزفاف الأبيض يحمل معاني لم تكن موجودة في العلاقة التي تربطها ببليز. ومهما يكن من امر فهي لن ترتدي ثوباً ابيض.

ولكن كيف وجدت نفسها بعد قليل وكأنها مسلوبة الارادة، في فستان ابيض رائع، امر لم تستطع اندريا تفسيره.

وعندما جربت اندريا اخيراً ثوباً من قماش الاورغانزا الشفاف عادت وارسلت المساعدة لتأتيها بالطرحة لترى اندريا الصورة الكاملة التي ستبدو بها.

ظلت السيدة قربها تساعدها وتضع لمسات هنا واخرى هناك الى ان بدت راضية عن الصورة امامها. ثم وبحنان ورقة نظرت الى اندريا وقالت لها:

«والآن انظري الى نفسك في المرآة».

نظرت اندريا في المرآة. من هي تلك الصبية الممشوقة القوام التي تسبح في غيمة بيضاء سماوية؟

بعد ذلك ازاحت السيدة ستاراً فاصلاً، وبرفق دفعت اندريا امامها الى حيث كان يجلس بليز.

يجب ان لا يراني في ثوب الزفاف: قالت اندريا لنفسها، فذلك نذير شؤم، وارادت ان تتراجع لكنها عادت وتذكرت ان هذا الرمز البسيط لم يكن الا واحداً بين عشرات من تقاليد الزواج المحببة والتي لم تكن لتعنيهما في شيء، فهما بالنتيجة، يحضران لتمثيلية ليس الا.

رفع بصره اليها. كانت عيناه باردتين تحت حاجبين معقودين وبدا نافد الصبر عصبياً. ربما لم يعجبه الفستان، قالت اندريا في نفسها، او ربما شعر بسخف المهزلة التي كان مقدماً عليها او ربما، وهذا هو الأهم، تذكر خطيبته السابقة وهي تختال بثوب الزفاف الأبيض.

اومأ برأسه اخيراً الى السيدة التي ظلت واقفة تنتظر اشارة منه وتمتم:

«رائعة».

وتوقف قليلاً ثم اضاف:

«قدمي للآنسة كل ما تحتاجه ولا تنسي الحذاء».

تقدمت اندريا منه وثوبها يبعث حفيفاً كحفيف اوراق الشجر، ووضعت يدها على زنده وقالت له بتوسل:

«ارجوك يا بليز. اصغي الي لا يمكنني ولا يجوز ان ارتدي هذا الثوب».

«ولم لا؟».

سألها بصوت لا تعبير فيه وكانت نظرته اليها لا تختلف عن نظرة اي انسان الى تمثال جميل في واجهة احد المتاجر وتابع:

«انه يلائمك تماماً».

«انها ليست مسألة ملاءمة او عدم ملاءمة».

اجابته، ثم اخفضت صوتها عندما لاحظت ان صاحبة المحل كانت تراقبهما بفضول وتابعت:

«اذا كان يلائمني فهو بالتأكيد لا يلائم المناسبة».

وهذا الثوب، تابعت في سرها، يمثل كل ما تفتقر اليه في هذا الزواج. انه رمز السعادة والاحلام الوردية والحب! واين هو الحب في علاقتنا هذه؟

«واظن انه مناسب جداً. وسوف ترتدينه غداً وتظهرين امام المدعوين في الصورة التي يتوقعونها. لا تجزعي يا عزيزتي. اعتبريه ان اردت زياً مبتكراً لحفلة تنكرية ترتدينه لبضع ساعات فقط ثم تتخلصين منه الى الأبد».

لم تنجح اندريا في اقناعه بأن ارتداء هذا الثوب بالذات هو ضرب من ضروب الخيانة وانه لا يجوز ان يشوها رمزاً من رموز الحب والجمال بالنفاق. فلقد اصر على موقفه معتبراً كلامها عاطفياً وبدون منطق.

بعد ان فرغا من مشترياتهما واصبحت العلب والصناديق جميعها في السيارة، اقترح بليز وبدون اي مقدمات ان يريها الأماكن الاثرية والسياحية في المنطقة.

توجها اولاً الى ساحة دوليل، المشهورة بالنبع في وسطها حيث القى بطرس الناسك عظة الحرب الصليبية الأولى. بعد ذلك قاما بزيارة الكاتدرائية السوداء ذات الطراز القوطي والتي تطل على الجزء القديم من المدينة. وجدتها اندريا في غاية الفخامة ولكنها لم تستطع ان تقاوم شعوراً بالانقباض اعتراها فجأة وردته الى الحالة النفسية التي كانت فيها.

بعد ذلك تناولا طعام الغداء على شرفة مطعم رويات الفخم والذي يشرف ايضاً على المدينة القديمة. ولدهشتها اكتشفت اندريا انه كان باستطاعتها ان تنعم حقاً بالطعام وبالشراب وباشعة الشمس وحتى بقليل من الاسترخاء.

نظر اليها بليز بعينين نصف مغمضتين بسبب وهج الشمس وقال:

«ما الذي يسعدك؟».

وكان مستلقياً على كرسيه باسترخاء.

«لا يهم».

اجابت بسرعة وشعرت بالخجل لأنها سمحت لخيالها ان يطير بها بعيداً وكأنها خالية البال.

«كما تشائين».

تمنت لو اجابته، فالعلاقة بينهما كانت متوترة بدون ان يظن بانها كانت تتعمد عدم اشراكه في افكارها. تنهدت وهي تسترجع في ذاكرتها جولتهما في الكاتدرائية ذاك الصباح وكيف اقتصر الحديث بينهما على بضع كلمات مقتضبة وتنهدت من اعماقها. الى متى كان سيستمر في حرب الصمت هذه؟ الم يكن عليهما ان يتحدثا بشأن مستقبلهما؟ وهل يعقل ان يتم الزواج في اليوم التالي بدون ان يتوصلا الى تفاهم نهائي حوله؟ استرقت اليه نظرة ورأته يدخن سيكارته ويحدق في الدخان المنبعث منها وكأن لا شيء اخر في الدنيا يستحق التفاتة منه غير ذلك الدخان.

كانت الشرفة تغص بالزبائن حتى في ذلك الوقت المتأخر من الفصل. واوحت اليها الجموع المحتشدة فكرة مجنونة وهي انه بامكانها ان تختفي بينهم. لم يكن بليز قد دفع حساب الغداء بعد. يمكنها ان تتظاهر بانها تريد ان تغسل يديها وبعدها تدبر امرها. وتبلورت الفكرة في رأسها: ستذهب الى احد فنادق كليرمون فران بالذات اذ لن يخطر بباله البحث عنها في المدينة نفسها فهو سيظن انها غادرتها باسرع وقت. نظرت الى بليز ورأته ينقل بصره في ارجاء المكان بحثاً عن النادل. نهضت من مكانها وقالت:

«اعذرني لبضع دقائق فقط».

«بالطبع».

اجابها وهو ينهض بدوره ويناولها حقيبة يدها وبنبرة مهذبة تابع:

«ويؤسفني ان اعلمك بانني سمحت لنفسي بأن آخذ جواز سفرك عندما كنت تجربين الاثواب في المتجر. فلنقل انه تدبير احتياطي فقط، وعلى هذا فانني ادعوك الى التخلي عن اي فكرة مجنونة قد تراودك، لأنها يا عزيزتي، لن يكتب لها النجاح».

حاولت جاهدة ان تخفي خيبة الأمل التي اصابتها وقالت:

«لم يكن ذلك ضرورياً ايها السيد، فلقد استسلمت لقدري».

«اتمنى ان يكون ذلك صحيحاً فلربما لم يكن هذا الزواج المحنة التي تتصورين».

ويغضب ويأس صرخت في وجهه بكلام جارح لم يكن من عادتها ان تسمح لنفسها به فقالت:

«وهل تخشى ان تتخلى عنك خطيبتك للمرة الثانية؟ هل تعتقد ان الابتزاز والتهويل هما الطريق الوحيد للحصول على عروس؟ وهل هذا التهديد بتدمير عائلتي هو من شيم عائلتك الكريمة وهل انت فخور بعملك هذا؟».

«ما الذي ترمين اليه من خلال هجومك؟ اذا كنت تستدرجينني لاقذف جواز السفر في وجهك وارسلك الى الجحيم، فانت لم تحسني الحساب وعلي ان اخيب املك. وسيكون من دواعي سروري ان اعلمك اصول المعاملة وحسن التصرف عندما تصبحين زوجتي».

شعرت اندريا بارتباك شديد عندما رأت عيون الزبائن تنصب عليهما في فضول وبتلعثم قالت:

«ربما كان من الأفضل ان نتابع هذا الحديث في مكان غير هذا».

لكنه اجابها بشكل قاطع لم يدع مجالاً لاي جدل:

«لا ارى سبباً لاكمال الحديث».

وبنقرة من اصابعه على الطاولة امامه، هرع اليه النادل ودفع بليز الحساب وانطلقا ويده على ذراعها كالكماشة.

«انك تؤلمني».

«ليته كان عنقك!».

اجابها بنبرة جعلتها تنظر اليه بدهشة واستنكار واجابته وهي تتظاهر بشجاعة لم تكن تشعر بها بتاتاً:

«هذا لسان حالي، فعندها اتخلص منك على الأقل!».

كانا يسيران في محاذاة سياج من الشجر. استدار نحوها فجأة ودفعها حتى التصق ظهرها بالسياج وشعرت باغصان الشجر واوراقها تتكسر وتخدش جسمها من خلال قماش ثوبها الناعم. وبصوت ارسل الرعب الى قلبها قال وهو يصر باسنانه:

«قلت بانني سوف القنك دروساً في السلوك بعد الزواج. ولكنك بحاجة

الى درس سريع كما يبدو».

وقبل ان تستوعب تماماً ما كان يقصد بكلامه هذا كان يمسكها من كتفيها ويهزها بعنف ثم يجذبها نحوه ويطوقها بذراعين قويتين جعلت انفاسها تنحبس في صدرها ثم يطبق بعناق محموم جعلت صرخات الاحتجاج التي علت في داخلها تختنق في حلقها.

شعرت اندريا بدوار في رأسها ولم تعد ساقاها قادرتين على حملها واعترتها رجفة شديدة ولم تنجح في كبح استجاباتها العفوية التي كانت ملأى بالمشاعر والأحاسيس الغريبة. وجاءها صوته وكأنه من عالم آخر يقول بلا مبالاة:

«غاستون في انتظارنا، اذا كنت جاهزة يا آنستي».

ومد يده وانتزع من بين خصلات شعرها الحريري بعض اوراق الشجر، وبدون مقدمات التقط خصلة من شعرها ورفعها بيده ولم يتركها الا بعد ان رفعت بصرها نحوه والتقت نظراتها. اطال النظر في عينيها وقال:

«لا تستفزيني بعد اليوم يا اندريا».

ثم اخذ ذراعها برفق وتابعا سيرهما.

كانت رحلة العودة مختلفة تماماً عن رحلة الصباح. اذ وجدت اندريا نفسها محشورة بين بليز الذي تولى القيادة وبين غاستون الذي جلس الى يمينها والرجلان في حديث معظمه بالفرنسية وكان يدور حول امور زراعية واخرى تتصل بالقصر والتعاونية وكأنها كيس من التبن بينهما او حتى كأنها غير موجودة!

عندما توقفت اخيراً اللاند روفر في باحة القصر الخارجية كانت اندريا بالفعل منهكة. فنزلت من السيارة بتثاقل متجاهلة يد بليز التي مدها اليها ليساعدها على الهبوط. استوقفها بنبرة آمرة وسألها:

«هل تودين ان يحمل غاستون الاغراض الى غرفتك؟».

كان بودها ان تقول له بالضبط ما توده ان يفعل بها ولكنها فضلت ان تلوذ بالصمت درءاً لفورة اخرى من غضبه المحموم. شكرته ببضع كلمات مقتضبة وتابعت سيرها.

وجدت اندريا السيدة بريسون في المطبخ وكانت منهمكة في تلميع وتنظيف اعداد هائلة من الأواني الزجاجية والفضية والأكواب والأطباق.

كان واضحاً انها تحضر لحفلة الاستقبال التي ستقام في اليوم التالي. لم تدر ما تقول وبتلعثم واضطراب افهمت السيدة بريسون انها اعتقدت ان الاستقبال سيقتصر على الأخصاء فقط. غير ان السيدة بريسون لم تأبه لكلامها وراحت تطمئنها بأن ما تشعر به من عصبية وضيق هو امر طبيعي ويسمى بحالة اعصاب العروس، وجميع العرائس يشعرن به.

كانت جميع العلب والصناديق في الغرفة عندما صعدت اندريا اليها. كان بودها ان تتجاهلها، لكن قلبها لم يطعها خاصة فيما يتعلق بذلك الثوب الرائع. كان عليها ان تخرجه من علبته وتعلقه فهو لا يستحق ان يتغضن داخل العلبة. وبنفس حزينة وقلب واجف اخرجته من علبته واخذت الاكليل والطرحة ووضعتها على المنضدة. التقطت عيناها صورتها في المرآة فوقفت تتأمل نفسها. بقليل من التبرج وبشعر مرفوع ستبدو بدون شك اكثر جمالاً في الطرحة البيضاء. اعتراها حزن مفاجىء ففي المرات القليلة التي كان يسرح فيها خيالها كانت تتخيل نفسها يوم عرسها محاطة بجميع افراد عائلتها. كانت كثير الاشياء في الصورة التي رسمتها في ذهنها وكان لامرأة عمها الدور البارز فيما يختص بانتقاء الجهاز واختيار الألوان المناسبة وتسريحة الشعر.

سمعت اندريا طرقاً على الباب وظنت انها السيدة بريسون ولم تشأ ان تجيب فلقد كانت بالفعل في حالة من الارهاق العصبي والنفسي والجسدي الشديد. وقالت في نفسها ان السيدة بريسون لن تلبث ان تنصرف ظناً منها ان اندريا مستغرقة في النوم. وبدل ان ينصرف الطارق كما توقعت فتح الباب ودخل الغرفة. ولم تكن الخطوات التي سمعتها اندريا قطعاً للسيدة بريسون. عضت اندريا على شفتيها واخذت نفساً عميقاً وظلت ساكنة بلا حراك. ومن حسن الصدف انها كانت مستلقية على السرير وظهرها للباب. مرت دقائق خالتها زمناً وخشيت ان يعرف انها لم تكن مستغرقة في النوم ان هي اتت بأدنى حركة ولذلك قطعت تقريباً نفسها وحرصت على ان تظل في الوضع نفسه. اخيراً سمعت وقع خطواته تبتعد والباب يغلق بهدوء وراءه.

ظلت ساكنة لا تأتي بحركة حتى بعد ان ترك الغرفة. ولم تنهض من سريرها الا عندما شعرت بقشعريرة وارادت ان تخلع ثيابها وترتدي ثياب

النوم وتأوي الى فراشها على الاستلقاء يريحها. وعندما مدت يدها لتتناول قميص النوم لامست اناملها شيئاً وجدته عندما التقطته رزمة صغيرة ملفوفة على شكل هدية. كانت اندريا على يقين ان تلك العلبة الصغيرة لم تكن من بين المشتريات.

نظرت اليها بحيرة. كانت متأكدة انها اخرجت جميع مشترياتها من الصناديق ولم تكن هذه من بينها فمن اين اتت اذن وماذا كانت تحتوي؟

راحت تقلبها بين يديها. كانت علبة صغيرة وخفيفة الوزن وكان حولها شريط معقود بشكل جذاب. امن اجل هذا دخل بليز غرفتها؟ بدا هذا الأمر صادراً عنه هو بالذات، صعب التصديق. ولكن لم لا؟ هل كانت تعرفه وتعرف حقيقته؟ طرحت هذا السؤال على نفسها وهي تتذكر عناقه الدافىء في حديقة الفندق ذاك الصباح.

لم تستطع اندريا ان تكبح فضولها ففتحت العلبة لترى ما كان بداخلها. امتلأت يداها فجأة بقماش ناعم. قربته من النافذة فوجدت ان ما امتلأت به يداها كان قميصاً للنوم من قماش الدانتيل الأبيض وكانت حمالتا الكتف كناية عن شرائط من الساتان الرفيع يشده الى الخصر حزام من الشريط نفسه على الطراز الامبراطوري. تأملته بعينين مشدوهتين.

ما معنى هذه الهدية الحميمة؟ تساءلت في نفسها وماذا كان يقصد من وراء هذه البادرة؟ فالتناقض بين هذه الهدية وما ترمز اليه وبين التدبير العملي الذي شرحه لها ووعدها به، كبير جداً.

ربما اراد ان يحذرها بأنه لن يتخلى عن حقوقه الزوجية وبأنها لا يجب ان تثق بوعوده السابقة حول الزواج صورياً. واذا كان الأمر كذلك فما الذي كان ينتظرها يا ترى؟ وبعد ان اعتقدت بأن الأمور ابتدأت تتوضح في ذهنها جاء بهديته تلك يقلب الأمور رأساً على عقب ويبعث في نفسها هواجس كانت تأمل في طيها. ومرة اخرى وقعت فريسة افكارها وهواجسها.

كان عليها ان تدوس على قلبها وان تتجاهل تلك المشاعر والاحساسيس التي راحت تجيش في نفسها ان كانت تبغي الخروج من هذه المعركة بأدنى حد من الكرامة والكبرياء. وكان عليها من اجل ذلك ان تجد طريقة ما لتفهمه بانها لن تسمح له باكثر من الشكليات الرسمية المتعلقة بهذا الزواج وبانها لن تدع عناقه الدافىء يشوش تفكيرها السليم مهما كان الثمن.

اندفعت من غرفتها والقميص بين يديها. وجدت غرفة بليز غارقة في الظلام وكان هو ما زال في الطابق الأرضي كما توقعت. وقفت برهة امام الباب المزدوج الضخم ثم انهالت على القميص تمزيقاً حتى اصبح قطعاً بين يديها ورمته على سريره وانطلقت تعدو وكأن الشيطان في اثرها.

٥- العرس والأسطورة

أرجعت اندريا كوب الشراب بدون ان تمسّه.

كانت السماء متجهمة والمطر ينهمر بغزارة كحراب من فضة. اسندت جبينها الملتهب الى زجاج النافذة وشعرت ببرودة مريحة. كانت تشعر بانزعاج شديد من دبابيس الشعر التي كانت تسبب لها وخزاً في رأسها، كما كانت الطرحة تزعجها كذلك.

وأخيراً وجدت نفسها في الغرفة وحدها اذ خرج بليز ليودّع الكاهن وطبيب القرية وهما آخر الضيوف.

وكانت اندريا ذلك الصباح قد وقفت بين الضيوف تبتسم تارة وتصافح الأيدي الممدودة تارة اخرى، وتتمتم بكلمات الشكر مرة ثالثة حتى كاد رأسها ينشق الى نصفين بسبب الجهد الذي بذلته.

سمعت الباب الخارجي يغلق وتحفّزت لملاقاة بليز الذي ما لبث ان دخل الغرفة بقامته المديدة. وبدا في طقمه الأسود الرسمي وقميصه الناصع البياض مفرط الاناقة جذاباً. لكنه كان اكثر تباعداً وتحفظاً من عادته. وخيّم على الغرفة صمت ثقيل قطعته اندريا بقولها:

«هل ذهب جميع الضيوف؟».

«نعم».

اجابها وهو يرفع حاجبيه مستفهماً وتابع:

«ولم تسألين؟ لا بد انك متشوقة للانفراد بي!».

شعرت اندريا بالدم يصعد الى رأسها ولكي تخفي ارتباكها اجابته بشيء من الغطرسة والاستفزاز قائلة:

«وهل يعقل هذا؟».

«احذري يا اندريا!».

صرخ بوجهها وعيناه تضيقان ونظرته تبعث في جسدها ارتعاشاً وقشعريرة.

لم يكن قد تسنى لهما حتى تلك اللحظة ان يتحدثا على انفراد ولذلك لم يكن لدى اندريا اية فكرة حول ردة الفعل التي اثارها في نفسه تمزيق قميص النوم الذي اهداها اياه الليلة السابقة. على ان اندريا شعرت وهي تقف بقربه في مبنى المحافظة ذاك الصباح وبعدها في الكنيسة الرعائية الصغيرة في القرية، بعاطفة تهز كيانه هزاً وكأنه عاجز عن السيطرة الكلية عليها وذلك برغم حرصه على الظهور بمظهر المتمالك اعصابه والمسيطر على الموقف تماماً. وعندما انحنى ليطبع قبلة الزواج التقليدية على وجنتها بعد ان اعلنهما الكاهن زوجين بالكاد لامست شفتاه خدها وكانت عيناه المغمضتان تحجبان عنها ما كان يجيش في داخله من أحاسيس.

لم تكن اندريا مطمئنة لكل تلك اللامبالاة التي اظهرها بل على العكس فقد اثارت في نفسها شكوكاً وتوجساً وجعلتها تشعر بالندم على ما بدر منها ازاء قميص النوم في الليلة السابقة. ربما كان عليها ان تخفيه فقط في احد الادراج وتتناسى وجوده لا ان تتصرف كما فعلت. ولكن ماذا ينفع الندم بعد فوات الأوان؟ ولم تر مناسباً ان تشرح الأمر له وتعتذر لئلا تزيد الطين بلّة، ولم يبق امامها اذن الا ان تتجاهل الأمر كله وتطلب من المولى ان يلهمه

هو كذلك ان يغض النظر.

اشتد الصداع في رأسها ولم تعد تقوى على تحمّل الطرحة والدبابيس اكثر من ذلك. فانتزعتها عن رأسها وتركت شعرها ينساب حول وجهها وعنقها وعلى كتفيها علّ ذلك يريحها ويخفف من ألم رأسها.

ظنت انها سمعت شهقة مكتومة صادرة عن بليز ولكنه كان عندما نظرت اليه جامداً كالصخر ووجهه كلوح اردوازي ممسوح. أخرج من جيبه علبة سكائر وأخذ سيكارة وأشعلها بهدوء وتأمل. وكان على اندريا ان تبلّل شفتيها الجافتين قبل ان تستطيع التكلم وقالت:

«هل تتوقع ضيوفاً بعد؟ ام انه اصبح باستطاعتي ان ابدّل ثيابي الآن؟».

«كلا. ولكن لم العجلة؟ انت فاتنة في هذه الثياب ونحن الآن وحدنا».

«ربما، ولكنني لا اشعر بالراحة، وليس هناك ما يوجب بقائي في هذا الثوب. فلقد انتهى الدور واعتقد بأنني قمت به خير قيام، والآن أود ان أعود الى حقيقتي».

«وما هي حقيقتك تلك التي تودين استرجاعها؟ أنت الآن يا عزيزتي السيدة اندريا لوفاليه ويجب ان لا تغيب هذه الحقيقة عن ذهنك».

«وهل يعقل ان أنسى؟».

تمتمت وعيناها على الخاتم حول اصبعها ورفعت يدها ودلّت عليه وهي تقول:

«واذا ما نسيت فان هذا كفيل بتذكيري!».

«ولكنه للأسف مؤقت».

اجابها وهو ينزع سترته ويضعها باهمال على احد الكراسي ثم تابع:

«عليّ ان اجد طريقة تجعلك تشعرين بحقيقة هويتك الجديدة يا سيدتي».

وضعتها كلماته تلك في حالة استنفار وحذر لكنها اجبرت نفسها على الاحتفاظ بهدوء اعصابها وقالت:

«لدي فكرة».

«حقاً، انك تحيرينني يا سيدتي وما هي فكرتك تلك؟».

«أنا اعلم ان زواجنا شكلي فقط. ولكن هل سينطبق هذا التدبير الشكلي على مركزي في المنزل ايضا؟».

«لا افهم. عمّ تتكلمين؟».

«قالت لي السيدة بريسون انها تريد بعض الوقت لتتصرف الى اشغال الابرة وبأنك وعدتها بذلك بعد الزواج. فاذا كانت حقاً هذه ارادتك، فهل يعني ذلك انني سأكون مسؤولة هنا واتمتع بصلاحيات ربّة المنزل؟».

«وأي صلاحيات تريدين؟».

سألها وفي عينيه لغز محير.

«هناك تغييرات عديدة يحتاجها القصر وفي نيتي اولا ان اجعل الجناح الذي نشغله اقل قفراً وأكثر رونقاً».

توقفت قليلا، وعندما لم تحظ منه بأي جواب تابعت وكأنها تدفع عن نفسها تهمة:

«لديّ بعض المال. وأريد فقط ان اعرف اذا كنت ستطلق يدي في هذه الأمور ام انه عليّ ان اعرض الأمر عليك قبل تنفيذه؟».

«يجب ان تحصلي على موافقتي في الأمور الكبيرة فقط. ولكنني لا أريدك ان تنفقي من مالك، فأنا لست معدماً كما تظنين!».

«لم يخطر هذا الأمر في بالي. ما اردت الا المساعدة فقط».

«أنا لا ارفض مساعدتك. كل ما في الأمر انني اريد منك ان تجعليها تقتصر على الأمور العملية فقط».

قال ذلك واقترب منها ووضع يده تحت ذقنها ورفع وجهها اليه وراح يتأملها. وفجأة ظهرت على وجهه ابتسامة عريضة عندما رأى ما ارتسم على وجهها من علامات التمرّد والتحفز. ثم تابع:

«اعتقد انه من الأفضل ان تبدأي عملك بتجهيز غرفة لفيليب. فلقد اصبح بامكاني ان اضمّه اليّ الآن وكلفت المحامي ان يجري اتصالات مع سيمون وذلك لنزع وصايتها عنه ونقلها اليّ. وعلى هذا فان قدومه الينا اصبح وشيكاً».

«حسناً . . . كم عمره؟».

«خمس سنوات تقريباً».

أجابها وبعد تفكير قصير أردف:

«ألا يزعجك وجود طفل لا تعرفينه؟».

«أنا شغوفة بالأطفال».

وأريكها ان ترى ما ارتسم في عينيه من اهتمام، وعندها اجابها برقة قائلا:

«سوف اتذكر ذلك دائماً».

«هل اصبح بامكاني الذهاب الآن؟».

«اذا كنت مصرّة، لكن يجب ان احذرك بأن كلوتيلد تتوقع منك تصرفاً غير هذا. فهي من عائلة شديدة التمسك بالتقاليد وربما كان عليك ان تنتظري منها محاضرة طويلة حول واجباتك كزوجة، فهي لا تقبل اي مزاح في هذا الموضوع، ولم تكن راضية اطلاقاً عندما رفضت السماح لها بنقل ثيابك الى غرفتي وساءها جداً هذا التدبير».

«وماذا قلت لها غير ذلك؟».

وقد لا يسرّك ما قلته لها. هل أنت متأكدة انك ترغبين في سماعه؟».

صرخت بانفعال:

«حقاً!».

واندفعت خارجة. هدأت قليلا عندما وجدت نفسها أخيراً وحدها في غرفتها. خلعت ثوب الزفاف وارتدت سروالا من قماش الجينز وسترة وشعرت انها أكثر حصانة عمّا كانت فيه في ثوب الزفاف الشفاف والذي يحمل الكثير من الاغراء. تأملت صورتها في المرآة ورأت كيف يظهر هذا السروال تقاطيع جسمها بكل وضوح. هاها ما وصلت اليه حالتها من تعقيد فهي لم تكن يوماً بحاجة الى تحليل ما قد يثيره لباسها في الآخرين من تأثير.

تناولت فرشاة الشعر وراحت تسرّح شعرها المتساقط على كتفيها ثم وضعت بعض الحمرة فوق خدّيها الشاحبين، وعادت تتأمل صورتها في المرآة. أرضتها الصورة المنعكسة نوعاً ما.

ألهت اندريا نفسها بترتيب غرفة الطعام. كانت بدون شك الغرفة الأكثر استعمالا في البيت كله ومن الطبيعي اذن ان تبدأ بها. تأملت الستائر الذهبية التي بهت لونها وخبا رونقها بمرور الزمن. لا بد انها كانت في منتهى الجمال والفخامة ذات يوم، ولن يكون من السهل اطلاقاً ايجاد القماش نفسه وان وجد فلا شك بأن ثمنه سيكون باهظاً جداً نظراً للخيوط الذهبية التي كانت تتخلله.

ربما حالفها الحظ ووجدت قماشاً قريباً منه ولا بأس ان كان أقل فخامة وجودة، وعندها يمكنها ان تستبدل ما بلي من الستائر وربما بعض اغطية الكراسي ايضا. حملت بعض الأكواب الفارغة وتوجهت الى المطبخ حيث كانت كلوتيلد تحضّر طعام العشاء. نظرت الى اندريا باستنكار ولم تقل شيئا. ولكن عندما اخبرتها اندريا انها كانت ستجهز غرفة لفيليب، أثنت عليها وعرضت ان ترافقها في جولة عامة على غرفة الطابق العلوي.

ادركت اندريا حتى قبل ان تنتهي من استعراض الغرف في القصر، حجم المسؤولية التي جلبتها لنفسها وارتضت بها. لم ترَ غرفة واحدة تصلح لطفل في الخامسة من عمره فجميع الغرف كانت كبيرة جداً واثاثها من النوع الضخم والطراز القديم الذي لا يمكن ان يرتاح اليه الاطفال.

لم يبد ان السيدة بريسون فهمت ما كانت اندريا ترمي اليه. فجميع الغرف في نظرها كانت صالحة وأي واحدة منها تليق بالسيد فيليب ولم توافقها ابداً على ان الأثاث الضخم والستائر القاتمة الألوان تشكل عائقاً.

قالت اندريا وهي تبعد عن وجهها خصلة من الشعر تهدلت عليه:

«الا يوجد في القصر كله غرفة اصغر قليلا من هذه التي استعرضناها الآن؟».

وكانت الغرفة الأخيرة في جولتها الأسوأ حجماً وأثاثاً. فأي طفل في الخامسة كان ولا بد سيختفي في ذلك السرير الضخم. عادت اندريا وكررت السؤال نفسه قائلة:

«ماذا قلت، الا يوجد غرفة اصغر من تلك؟».

بسطت كلوتيلد يديها وكأنها تستسلم وأخبرت اندريا ان جميع غرف الطابق العلوي كانت غير صالحة للاستعمال وهي في أي حال تقل ضخامة عن غرف الطابق السفلي.

«وماذا عن البرج؟».

«لم تطأه قدم منذ وفاة السيد الكبير. ويقال انه غير آمن».

«أريد ان ألقي نظرة عليه».

كانت جميع الأبواب المؤدية الى ذلك الجزء من القصر موصدة، واستغرق التفتيش عن المفاتيح وقتاً طويلا. وعندما فتح الباب الكبير اخيراً محدثاً صريراً قوياً لم تتمالك اندريا شعوراً غريباً اجتاح كيانها. صعدت

الدرج اللولبي المؤدي الى الطابق العلوي ووجدت نفسها في غرفة فسيحة عارية تماماً. تفحصت الأرض بقدميها فوجدتها صلبة. نظرت حولها بتفاؤل. فهذه الغرفة المستديرة ذات الجدران المنحنية تبدو ملائمة جداً. وارتسمت الصورة النهائية في رأسها. كانت ستختار اثاثاً بسيطاً وحديثاً والواناً مبهجة للنظر وكانت ستفرش بسطاً ذات الوان زاهية وقابلة للغسيل اما الغرفة السفلى فستحولها للمطالعة واللعب بعد ان تكون قد افرغتها من محتوياتها بالطبع.

برز رأس كلوتيلد من الباب الأفقي في ارض الغرفة وقالت لها وفي صوتها قلق وخوف:

«احذري يا سيدتي».

«لا عليك. الغرفة سليمة ولا يوجد أي خطر. ألا تظنين انها تصلح لفيليب؟ انها بنظري مثالية لطفل في سنّه».

تجهّم وجه السيدة بريسون وتمتمت بكلام لم تفهم منه اندريا شيئاً.

«ما الأمر؟».

سألتها اندريا بانزعاج وتابعت:

«لا تقولي لي الآن ان البرج تسكنه الأرواح او أي شيء من هذا القبيل!».

هزّت السيدة بريسون رأسها بالنفي ولكن النظرة الحذرة لم تفارق عينيها وقالت:

«ان ارواح الأموات من آل لوفالييه ترقد بسلام يا سيدتي. لكن هناك بعض الشائعات والأقاويل».

«حول هذا البرج بالذات؟».

بدا واضحاً ان كلوتيلد لم تكن تجد هذا الموضوع مسلياً وقالت باقتضاب:

«حصلت مآسي هنا».

«ولكل بيت قديم نصيبه من المآسي. وربما عرف سكان هذا القصر أوقاتاً سعيدة ايضاً. الشقاء والسعادة يتساويان بالنتيجة ويلغي الواحد منهما الآخر. ألا توافقين؟».

لم يبد ان السيدة بريسون اقتنعت بهذا الكلام. ولكن اندريا لم تأبه

لذلك واقتربت من احدى النوافذ ومدت رأسها من بين الألواح المكسوة بالغبار والسخام وسرح نظرها الى البعيد.

كان منظر الطبيعة خلاباً وبدت بيوت القرية كلها من تحتها ورأت النهر يتلألأ في قعر الوادي السحيق. قررت ان تضع اريكة او ربما وسادة على افريز النافذة وتحوّله الى مقعد، وتمنّت لو تحتفظ بهذه الغرفة لنفسها، لكنها كانت متأكدة من ان بليز لا يمكن ان يرضى بذلك فالغرفة كانت بعيدة ومعزولة عن باقي اجزاء القصر.

قطع عليها حبل تفكيرها صوت كلوتيلد التي قالت:

«ألا تعتقدين انه يحسن ان تبحثي الأمر مع السيد لوفالييه قبل اتخاذ أي قرار؟».

حدقت فيها اندريا وكأنها عادت فجأة الى دنيا الواقع وقالت لها:

«سأخبره بالتأكيد. ولكنني لا اتصور بأنه سيمانع. فهذا المكان افضل من اي مكان آخر في القصر. انه دافىء ومريح واعتقد ان شكله غير العادي سيسعد طفلاً في الخامسة من عمره. انه يروقني كثيراً».

قالت هذا ثم عادت الى النافذة تحاول فتحها. كان خشبها قديماً ومتيبساً ومفصلاتها تعلوها الصدأ، وخافت اندريا ان تكسرها ان هي ضغطت بقوة اكثر. ولكن بعد قليل شعرت بالمفصلات تلين قليلاً بين يديها وما لبثت النافذة ان انفتحت على مصراعيها مرسلة اصوات احتجاج حادة.

نظرت اندريا الى كلوتيلد بانتصار وزهو وقالت:

«هذا كل ما يحتاجه هذا المكان. الهواء النقي وبعض التغيير. الا توافقين؟».

كانت اندريا تزيل بمنديلها ما علق من غبار وسخام على يديها عندما سمعت صفيراً منبعثاً من مكان ما في باحة القصر. نظرت الى اسفل والتقت عيناها بعيني آلان الذي كان هو الآخر ينظر الى اعلى.

«ما الذي تفعلينه عندك؟ هل تقومين بدور رابونزل؟».

«شيء من هذا القبيل. ولكن للأسف ان شعري ليس طويلاً لأجعله حبلاً تتسلق عليه!».

«أظن ان الدرج عملي اكثر ولا يسبب ألماً لأحد. هل هناك درج؟ وهل يمكنني ان أصعد اليك؟».

الدرج اللولبي المؤدي الى الطابق العلوي ووجدت نفسها في غرفة فسيحة عارية تماماً. تفحصت الأرض بقدميها فوجدتها صلبة. نظرت حولها بتفاؤل. فهذه الغرفة المستديرة ذات الجدران المنحنية تبدو ملائمة جداً. وارتسمت الصورة النهائية في رأسها. كانت ستختار اثاثاً بسيطاً وحديثاً والواناً مبهجة للنظر وكانت ستفرش بسطاً ذات الوان زاهية وقابلة للغسيل اما الغرفة السفلى فستحولها للمطالعة واللعب بعد ان تكون قد افرغتها من محتوياتها بالطبع.

برز رأس كلوتيلد من الباب الأفقي في ارض الغرفة وقالت لها وفي صوتها قلق وخوف:

«احذري يا سيدتي».

«لا عليك. الغرفة سليمة ولا يوجد أي خطر. ألا تظنين انها تصلح لفيليب؟ انها بنظري مثالية لطفل في سنه».

تجهّم وجه السيدة بريسون وتمتمت بكلام لم تفهم منه اندريا شيئاً.

«ما الأمر؟».

سألتها اندريا بانزعاج وتابعت:

«لا تقولي لي الآن ان البرج تسكنه الأرواح او اي شيء من هذا القبيل!».

هزّت السيدة بريسون رأسها بالنفي ولكن النظرة الحذرة لم تفارق عينيها وقالت:

«ان ارواح الأموات من آل لوفالييه ترقد بسلام يا سيدتي. لكن هناك بعض الشائعات والأقاويل».

«حول هذا البرج بالذات؟».

بدا واضحاً ان كلوتيلد لم تكن تجد هذا الموضوع مسلياً وقالت باقتضاب:

«حصلت مآسي هنا».

«ولكل بيت قديم نصيبه من المآسي. وربما عرف سكان هذا القصر أوقاتاً سعيدة ايضا. الشقاء والسعادة يتساويان بالنتيجة ويلغي الواحد منهما الآخر. ألا توافقين؟».

لم يبد ان السيدة بريسون اقتنعت بهذا الكلام. ولكن اندريا لم تأبه

لذلك واقتربت من احدى النوافذ ومدت رأسها من بين الألواح المكسوة بالغبار والسخام وسرح نظرها الى البعيد.

كان منظر الطبيعة خلاباً وبدت بيوت القرية كلها من تحتها ورأت النهر يتلألأ في قعر الوادي السحيق. قررت ان تضع اريكة او ربما وسادة على افريز النافذة وتحوّله الى مقعد، وتمنّت لو تحتفظ بهذه الغرفة لنفسها، لكنها كانت متأكدة من ان بليز لا يمكن ان يرضى بذلك فالغرفة كانت بعيدة ومعزولة عن باقي اجزاء القصر.

قطع عليها حبل تفكيرها صوت كلوتيلد التي قالت:

«الا تعتقدين انه يحسن ان تبحثي الأمر مع السيد لوفالييه قبل اتخاذ اي قرار؟».

حدقت فيها اندريا وكأنها عادت فجأة الى دنيا الواقع وقالت لها:

«سأخبره بالتأكيد. ولكنني لا اتصور بأنه سيمانع. فهذا المكان افضل من اي مكان آخر في القصر. انه دافىء ومريح واعتقد ان شكله غير العادي سيسعد طفلا في الخامسة من عمره. انه يروقني كثيراً».

قالت هذا ثم عادت الى النافذة تحاول فتحها. كان خشبها قديماً ومتيبساً ومفصلاتها تعلوها الصدأ. وخافت اندريا ان تكسرها ان هي ضغطت بقوة اكثر. ولكن بعد قليل شعرت بالمفصلات تلين قليلا بين يديها وما لبثت النافذة ان انفتحت على مصراعيها مرسلة اصوات احتجاج حادة.

نظرت اندريا الى كلوتيلد بانتصار وزهو وقالت:

«هذا كل ما يحتاجه هذا المكان. الهواء النقي وبعض التغيير. الا توافقين؟».

كانت اندريا تزيل بمنديلها ما علق من غبار وسخام على يديها عندما سمعت صفيراً منبعثاً من مكان ما في باحة القصر. نظرت الى اسفل والتقت عيناها بعيني آلان الذي كان هو الآخر ينظر الى اعلى.

«ما الذي تفعلينه عندك؟ هل تقومين بدور رابونزل؟».

«شيء من هذا القبيل. ولكن للأسف ان شعري ليس طويلا لأجعله حبلا تتسلق عليه!».

«أظن ان الدرج عملي اكثر ولا يسبب ألماً لأحد. هل هناك درج؟ وهل يمكنني ان أصعد اليك؟».

وقبل ان تجيبه، سمعت اندريا السيدة بريسون تتنحنح وراءها. من الواضح انها لم تكن تقرّ مثل هذا الحديث من عروس في يوم عرسها، ولذلك قالت له:

«هناك بعض التعقيدات. سأنزل أنا اليك».

هبطت الدرج ببطء ويدها على الحائط لتحفظ توازنها مما جعل بصرها يستقر على الخاتم الذهبي العريض الذي كان يزيّن اصبع يدها اليسرى. ماذا كانت ستقول لالان ولم يمضِ بعدُ ثمان وأربعون ساعة على تأكيدها له بأنها كانت في مهمة عمل ولا يربطها بيليز غير علاقة عمل؟

كان عليها ان تمر بالبناء الرئيسي قبل ان تخرج الى الباحة لموافاته كما وعدته، فتركت السيدة بريسون في البرج وطلبت اليها ان توصد الأبواب كما كانت.

ما ان وقع بصره عليها حتى سألها والأمل يعلو وجهه:

«هل تريدين فنجاناً من الشاي؟».

«كلا، شكراً».

اجابته وهي تحاول ان تجد الكلمات المناسبة لتخبره بما جدّ بدون ان تصدمه بالحقيقة. واستقر رأيها اخيراً على ان تخبره بطريقة مباشرة وصريحة فقالت:

«أكثرت من الطعام والشراب اليوم».

«هل كنتم تحتفلون؟».

«شيء من هذا القبيل».

اجابته وهي تخرج يدها من جيبها وتريه الخاتم في اصبعها.

«يا الهي!».

قال كمن صعق وانتزع نظارتيه عن عينيه ومسح زجاجهما بطرف سترته وسألها مشدوهاً:

«ومتى حدث هذا؟».

«هذا الصباح. ربما بدا لك ذلك غريباً».

«انه لا يعنيني في شيء».

اجابها بتهذيب شديد واستدار لينصرف.

«بحق الجحيم».

صرخت اندريا وهي تمسكه من ذراعه لتوقفه عن الانصراف ثم اضافت:

«أما زال عرضك بخصوص فنجان الشاي قائماً؟ أود ان اشرح لك الأمر».

«بالطبع انه قائم، ولكن لا لزوم لأي شرح. انها حياتك وأنت حرة ولا شأن لي بها، ولكنني بصراحة لا استطيع ان اتصورك مع هذا الرجل الاسمر».

توقف قليلاً وعلا الاحمرار وجنتيه ثم قال:

«المعذرة. ربما لم يكن من اللائق ان ادعو السيد لوفالييه بهذا اللقب امامك مع ان التسمية تلائمه جداً».

«صحيح».

اجابته وهي ترجع يدها الى جيب سروالها وتتقدمه بضع خطوات باتجاه غرفته.

وبعد ان شربا الشاي نظر اليها آلان بامعان ثم قال:

«أرجو ان لا يكون هناك أي ضير من سلوكنا هذا، فالمفروض انك في شهر العسل. وكيف يتركك تغيبين عن عينيه ولو للحظة واحدة؟».

«عندما قلت انني هنا في مهمة، لم يكن ذلك مغايراً للحقيقة. وليس بيننا اي علاقة حب لكي تعتبر هذا تطفلاً».

وما ان تفوهت بهذه الكلمات حتى شعرت بضخامة الألم الذي سببته له. ولم تجد الا الشاي ملاذاً لها في تلك اللحظة فراحت تشربه وكأن راحتها تكمن في هذا السائل الذي حرق فمها.

«لن اتظاهر بانني فهمت شيئاً، فانا بالواقع لم افهم ولكنني اعرف امراً واحداً وهو انني لا اريد ان يهجم العريس، فاقداً اعصابه، ليقطعني ارباً! هل تعلمين ان الجريمة العاطفية لا تزال تعتبر دفاعاً عن النفس في فرنسا؟».

تبسمت اندريا وهي تهز رأسها ولم تجب.

عاد آلان الى الكلام وقال:

«ولكنك لم تخبريني ماذا كنت تفعلين في البرج كنت اظنه منطقة محرّمة!».

«لم تبد كلوتيلد اي حماس للفكرة ولكنها لم تقل لي اي شيء من هذا».

«لا استغرب عدم حماسها للفكرة فربما كانت تخشى ان تلتقي مع ماري دنيز وجهاً لوجه!».

اجابها وعندما رأى الدهشة التي ارتسمت على وجهها اضاف:

«الم يذكر لك احد شيئاً عن ماري دنيز؟».

«لم اسمع بهذا الاسم قبل الآن!».

اجابته اندريا بضيق ثم سألته:

«ومن هي ماري دنيز؟».

عشرات الاحتمالات جالت في رأسها قبل ان يأتيها جواب آلان. هل كانت ماري دنيز الخطيبة التي عاملت بليز بهذه القسوة؟ اخيراً سمعته يقول:

«لو ولدت قبل مئتي سنة لكنت عرفت ماري دنيز. يبدو انها كانت زوجة كبير عائلة لوفاليه في ذاك الوقت. وكان للعائلة اذ ذاك لقب تخلوا عنه ابان الثورة الفرنسية فيما بعد».

توقف الان قليلاً ورمى اندريا بنظرة ثاقبة قبل ان يتابع قصته:

«ويقال ان زواج ماري دنيز من زوجها كان مدبراً ولم يكن احدهما قد رأى الآخر قبل الزواج. وعندما وجدا نفسيهما وجهاً لوجه يوم الزفاف شعرا بنفور متبادل بحسب الشائعة الرائجة اليوم. وبعدها بقليل رجع الماركيز الى فيرساي لكنه لم يصطحب ماري دنيز معه وتركها في القصر لتنعم وحدها بلقبها الجديد».

«وهل تمتعت باللقب؟».

«يبدو انها كانت فتاة جريئة ومليئة بالحيوية فما لبثت بعد ان تركها زوجها ان وجدت عزاءها في احدهم، فحملت في غياب زوجها وولدت صبياً. ولا بد انه كان للماركيزة اعداء لأن احدهم على ما يبدو نقل الخبر للماركيز الذي هرع الى القصر عند سماعه النبأ وكان قدومه غير متوقع. ولكن وعلى ما يبدو، هناك ما دفع الماركيزة الى اتخاذ الحيطة فعندما وصل الى القصر لم يكن الطفل فيه بل كان مع حاضنته في مكان آمن في الخارج وبدا كل شيء طبيعياً. والفلاحون في اعمالهم كالمعتاد الزوجة «الوفية» بانتظاره. بقي عدة ايام في القصر ثم رجع الى باريس معتقداً بان الخبر كان دسيسة مغرضة ولا صحة له».

«وكيف عرفت كل هذا؟».

«الم اقل لك انني جئت الى هنا لادرس تاريخ المنطقة؟ وهذه احدى القصص التي يتبرع الناس بسردها بدون اي مقابل. سمعت ما يزيد عن عشر روايات حولها لكنها جميعها متشابهة من حيث الوقائع. فجميع القصص مثلاً تقول ان والد الطفل الحقيقي بقي مجهولاً. منهم من قال انه احد المالكين في الجوار ومنهم من ذهب الى القول بانه احد الفلاحين ومنهم من قال بانه كان رئيس عمال الماركيز».

«يبدو انها كانت، رحمها الله، ذات نشاط واسع!».

«انما ليس كما تتصورين. فبعد ولادة الطفل لم يعد احد يسمع بأي فضيحة. ويقال بأنها كانت سيدة محبوبة وذات شعبية واسعة، تحسن معاملة الخدم اكثر من زوجها وفي المرات القليلة التي كان يأتي الماركيز لزيارتها كانت دائماً ترسل الطفل الى مكان آمن حتى يحين موعد انصرافه».

«الم يكتشف الماركيز امر هذا الطفل ابداً؟».

«بلى».

اجابها آلان بأسى وتابع:

«يبدو انه كان لماري دنيز عدو لدود، ربما ذلك الشخص نفسه الذي اخبر الماركيز عن الطفل في المرة الأولى وفي احد الأيام تظاهر الماركيز بالسفر ثم فاجأ زوجته بعودته في اليوم نفسه.

وعندما وصل الى القصر كانت ماري دنيز مع طفلها في البرج. كانت تداعبه وتدندن له الحاناً رقيقة، ولما رأت زوجها الماركيز يدخل من الباب فجأة، حاولت ان تتقدم منه بعذر مقبول فادعت انه ابن احدى الخادمات وبانها تدربه ليصبح خادمها المخلص في المستقبل.

وهكذا علم الماركيز بالأمر».

«وماذا قال لها عندها؟».

«لم يقل شيئاً... تظاهر بأنه صدقها واستمر يؤدي دور الزوج المطمئن خلال اسبوع كامل كان اثناءه يتفقد املاكه الشاسعة ويقيم الحفلات ويبادل فلاحيه الأحاديث الودية. وماري دنيز قامت بدورها كذلك. لم تعد تخفي ابنها لكنها حرصت على ابقائه بعيداً عن الماركيز ظناً منها ان ما لا تراه العين لا يمكن ان يؤذي القلب. وفي احد الأيام صعدت الى البرج

ووجدت الباب موصداً والمفتاح ليس في ثقبه. ارادت بالطبع ان تعرف السبب فقال لها زوجها ان المكان غير آمن لأن طفل احدى الخادمات وقع من احدى النوافذ ومات في الحال».

صرخت اندريا وهي تحدق فيه مصعوقة:

«يا الهي! . وماذا فعلت بعد ذلك؟».

«وما الذي بامكانها فعله؟ لم يكن بوسعها ان تثبت شيئاً. كان عليها ان تستمر في التظاهر. ولم تستطع ان تندبه او ان تلبس عليه ثياب الحداد. وعندما ذهب الماركيز الى باريس اصطحبها معه ولم يعودا بعد ذلك الى سان جان دي روش. وبعد بضع سنوات تناهى الى الاسماع ان الاثنين ارسلا الى المقصلة في عهد الارهاب. وانتقل القصر الى احد ابناء عم الماركيز اذ لم يكونا قد انجبا اولاداً. ومنذ ذلك الحين ساد الاعتقاد بأن البرج يجب ان يظل مقفلاً والا عادت اليه ماري دنيز لتجد ابنها».

كانت اندريا ترتجف، وقالت تخاطب نفسها:

«قالت لي السيدة بريسون انه لا اشباح في المكان».

«بالطبع لا يوجد اشباح انها مجرد قصة واردت ان لا اكون قد اخفتك».

«كلا لكنني كنت عازمة على تحويل البرج الى غرفة لطفل صغير انتظر قدومه ليعيش معنا. انه ابن شقيق زوجي ولكنني، ربما غيرت رأيي».

«لست ادري».

قال آلان وهو يشغل نفسه بابريق الشاي ثم تابع:

«ربما تكون اعادة المكان الى الاستعمال افضل حل يضع حداً لهذه الخرافة».

لم تقتنع اندريا بهذا الكلام ولكنها ادركت السبب الذي جعل السيدة بريسون تصر على ضرورة اخذ رأي بليز في الموضوع.

نهضت اندريا من مكانها واستأذنت بالانصراف وهي تقول:

«يحسن بي ان اذهب الآن وشكراً على ضيافتك واود ان ادعوك الى تناول العشاء معنا في الأيام القليلة المقبلة».

«ليس في المستقبل القريب. ربما في وقت لاحق».

عندما عادت اندريا الى القصر، كانت كلوتيلد تروح وتجيء في القاعة الكبرى وعلى وجهها علامات الاستنكار. وعندما وقع نظرها على اندريا

اسرعت تسألها:

«هل تريد السيدة ان احضر لها الحمام؟».

ادركت اندريا انه بالنسبة الى مدبرة المنزل، كان شهر العسل في اوجه وما سؤالها عن تحضير الحمام الا كتذكير مهذب بأنه عليها ان تبدل ثيابها استعداداً للعشاء. اوشكت اندريا ان تقول لها بانها تفضل البقاء كما هي، لكنها عدلت عن فكرتها وهي تشعر انها لن تربح شيئاً اذا عارضت السيدة بريسون.

اطالت اندريا النظر الى صورتها في المرآة. بدا كل شيء، ولو في الظاهر، على ما يرام. كان شعرها الكستنائي معقوصاً خلف اذنيها وحوله شريط رقيق من لون الثوب وتدلى من اذنيها زوج اقراط ذهبية دقيقة الصنع. على ان الشحوب الذي ملأ وجنتيها افشى حقيقة امرها. وبدت عيناها شديدتي الاتساع في وجهها الشاحب، وحول فمها ارتسمت علامات الارهاق الشديد. اطلقت تنهيدة من اعماقها فلم تكن تود ان تظهر امام بليز في هذه الصورة التي توحي بالضعف والاستسلام. لكنها عادت وتذكرت انه ليس في القصر كهرباء ومن المحتمل اذن الا يلاحظ بليز شحوب وجهها والهالات السوداء تحت عينيها.

وقفت اندريا في باب الغرفة التي تحولت بقدرة قادر الى عش غرامي يوحي كل ما فيه بالحب والحنان. حتى القناديل العادية وغير المثيرة استعيض عنها بشموع اضفى نورها على الغرفة جواً رومنطيقياً لطيفاً. ترددت اندريا قبل ان تدخل وراودتها فكرة الهروب. ارادت ان تحتمي في غرفتها لكن العقل قال لها ان تبقى وتحاول ان تظهر بمظهر من لم يلاحظ شيئاً غير عادي. واهم شيء، قال لها عقلها، هو ان لا تدع بليز يرى الانفعالات التي كانت مرتسمة على وجهها.

اثارت اعصابها هذه الخلوة التي فرضت عليها. ليتها اقنعت بليز باصطحابها الى مكان عام، الى مطعم كرودون مثلاً الذي اخبرها عنه الآن، اوليتها اقنعته بدعوة عدد من الاصدقاء لتناول العشاء معها. ولكن من الذي كان سيلبي الدعوة؟ كان الجميع سيرفضون افساحاً في المجال للعروسين. الم تقرأ اندريا كل ذلك في العيون الفضولية وفي الوجوه المترقبة؟

قطع حبل تفكيرها صوت خفيف انبعث من مكان ما في الغرفة. رفعت اندريا رأسها لترى بليز واقفاً بقرب الأريكة، كان وجهه في الظل ولذلك لم تستطع اندريا ان تقرأ ما ارتسم على ملامحه من مشاعر واحاسيس.

«اخفتني».

«ربما كأس من الشراب يصلح الأمور».

«شكراً لك».

تمتمت بصوت غير مسموع وهي تتناول الكوب الذي احضره لها وتأخذ بضع رشفات منه بدون ان تستطعم بما فيه. كانت يداها ترتجفان بشدة الى درجة انها خشيت ان تسكب الشراب على ثوبها. ولكن لم يبد ان بليز لاحظ اي شيء من عصبيتها.

«اخبرتني كلوتيلد بانك ترغبين في تحويل البرج الى غرفة لفيليب».

اختلست اليه نظرة سريعة علها ترى في وجهه ما لم تستطع ان تتبينه من صوته ولكنها لم تنجح في معرفة حقيقة مشاعره في هذا الشأن فاجابته بحذر:

«بدت فكرة لا بأس بها اولاً ولكنني لم اعد متأكدة الآن من صلاحيتها».

«هل لي ان اعرف السبب الذي جعلك تغيرين رأيك؟».

«اعتقد ان الأمر واضح. سمعت قصة ماري دنيز».

«آه... اذن اخبرك احدهم هذه القصة القديمة».

«الا تصدقها انت؟».

«لكل بيت عريق نصيبه من القصص. ولكن لا يجب ان نبالغ في اهميتها. فمن الصعب جداً بعد كل هذه السنين ان تفصل الحقيقة عن الخيال».

«هل امضي في مشروعي الأول اذن؟ اعترف لك بأن الفكرة بدت جذابة الى ان تحدثت مع السيدة بريسون بشأنها. عندها فقط ساورتني الشكوك».

«اود ان اطلي الجدران من الداخل باللون الأصفر الباهت ففيه جمال ودفء. واود ايضاً ان ابتاع بعض الاثاث البسيط وسريراً حديث الطراز يصلح لطفل صغير».

«افعلي ما ترينه مناسباً وسأطلب الى غاستون ان يفحص الارض

والسقف والنوافذ. ربما كان من الأفضل ان تحدد النوافذ فذلك اسلم. الا تعتقدين؟».

«لا اريد ان يشعر فيليب انه في سجن. ربما كان من الأنسب ان تطلب الى غاستون ان يضع مزلاجاً للوقاية فلا تعود تفتح النافذة الا من القسم العالي فيها ومن اجل التهوئة فقط. وفي اي حال فإن تحديد النافذة من شأنه ان يثبت الرواية المتداولة وانا اعتقد انه علينا ان نتجاوزها لا ان نحييها».

كان هناك طبق من القريدس حضر بطريقة مبتكرة وآخر من الدجاج المحمر اضافة الى الحساء الصافي الذي لم تذق اندريا بجودته في حياتها. وهكذا لم تدع كلوتيلد لوناً من الوان الطعام الا وقدمته لها ذاك المساء...

تناولت اندريا الطعام بشهية ادهشتها. وعندما وصل طبق الحلوى لم يكن عندها متسع للمزيد، وفي اي حال لم تكن تستطيع تناول الحلوى حتى لو ارادت، اذ شعرت بغصة في نفسها جعلت صدرها ينقبض فابعدت الطبق عنها.

«ما الأمر؟».

«لا شيء. ربما اني اكثرت من الطعام».

استرخى بليز على كرسيه وعلى وجهه الأسمر الجذاب تعبير مبهم وقال:

«كلوتيلد سيدة من الطراز القديم. فهي تعتقد ان الطعام الجيد والشراب الجيد ضروريان للحب الجيد».

وضعت اندريا الكوب من يدها ولم تجب.

وبعد فترة صمت قال:

«انك تبدين صامتة والصمت يعني القبول والموافقة، اليس هذا ما يقوله بنو قومك؟».

«اعتقد ان هذا الحديث بعيد عن الذوق السليم خاصة في هذا الظرف بالذات».

«اي ظرف يا عزيزتي؟ انا لا افهم».

«انك تعرف تماماً ما اعني».

اجابته وهي تحملق في وجهه. لكنه لم يأبه لحملقتها واجابها:

«لا اعرف الا اننا اصبحنا زوجين شرعيين اليوم. واعرف ايضاً انك تبدين فاتنة الآن وانه لا يفصل بيني وبينك في هذه اللحظة الا هذه الطاولة

اللعينة».

ازاحت كرسيها بنفاد صبر وبصوت مرتجف قالت:

«هناك اشياء كثيرة تفصل بيننا ايها السيد. كل ما بيننا انك قدمت لي عرضاً وارغمتني على القبول به. هذا كل ما في الامر».

«انك تخدعين نفسك يا سيدتي، فانا لم اقدم لك اي عرض، العرض الذي تتكلمين عنه قدمته لابنة عمك كلير وليس لك!».

حملقت اندريا في وجهه مشدوهة وقلبها يكاد يقفز من صدرها ونهضت من مكانها وقالت بقناعة لم تكن تشعر بها:

«هذه مغالطة وانت تدرك ذلك. فلقد اعلنت موافقتي على عرض قانوني ولا ارى اي فرق بين هذا الأمر والتدبير الذي اتفقت عليه مع كلير».

«لا اريد الدخول معك في اي جدل حول هذا الموضوع. بل اود ان ابين لك ان هناك فرقاً كبيراً. فانا مثلاً لم اضم ابنة عمك كلير بين ذراعي ولم اشعر بجسمها يرتعش ولم ار الرغبة في عينيها!».

شعرت اندريا بالكلمات تخنقها. خانها النطق، واخيراً صرخت في وجهه:

«كيف تجرؤ على التفوه بهذا الكلام؟ ليس لك الحق في ذلك».

«انت منحتني حقوقاً كثيرة يا اندريا عندما قبلت ان تصبحي زوجتي ويهمني تأكيد ذلك».

وراح ينظر اليها بعينين نصف مغمضتين واجتاحتها هستيريا شديدة وبدا لها وجهه في ضوء الشموع كوجه الشيطان. اخيراً استطاعت ان تقول بعد صمت طال:

«سأنصرف الآن ايها السيد ربما وجدتك غداً في حالة افضل».

تعمدت ان تسير ببطء لا ان تعدو باتجاه الباب وعندما مرت بقربه ظنت انه سيمسك بها فجفلت. غير انه لم يأت بأي حركة بل اطلق ضحكة خفيفة وهو يراها تتوارى خلف الباب.

كانت قد اصبحت في منتصف الدرج عندما سمعت وقع خطوات وراءها. ارادت ان تجري فتعثرت قدمها بذيل فستانها الطويل وفي اقل من لمح البصر وجدت نفسها وجهاً لوجه مع بليز.

لم تعد الكهرباء تجدي فهمست باسمه متوسلة ولكنه لم يبال. ضمها الى

صدره وعانقها بحنان.

كان عناقه رقيقاً ناعماً لا فظاظة فيه ولا ابتذال، فانهارت مقاومتها وشعرت بدوار في رأسها وكادت تهوي على الارض لو لم تتمسك بسترته.

غمرها خجل عارم ولم تقو على النظر اليه فأغمضت عينيها مشيحة بوجهها عنه. ارادته ان ينظر اليها ويملأ عينيه لكنه لم يفعل.

رأته يجتاز الغرفة بخطى ثابتة وسمعت الباب يغلق وخطواته تبتعد.

٦ - الوافد الجديد

استفاقت اندريا من نومها باكراً في صباح اليوم التالي وكانت تشعر بألم في رأسها، لم تدر لأول وهلة سبباً له ولا لتلك الكآبة التي غشيت كيانها.

لم يعد في مقلتيها دمع تذرفه لكثرة ما ذرفت عيناها من دموع في الليلة السابقة. كانت ما زالت غير مصدقة بأنه عاملها بتلك القسوة. ايقظ فيها رغبة كامنة وانتزع منها استجابة كاملة ثم اعرض عنها. هل كان يستحق تمزيقها لقميص النوم كل هذا الاذلال وذاك العقاب؟

ولم يعزها ان عمله ارتد عليه وخطته فشلت بل شعرت اندريا بشكل لا يقبل الشك بالجهد الخارق الذي كان عليه ان يبذله ليبعد جسمه المتمرد عن جسمها وكان عليه ان ينتزع نفسه انتزاعاً وهي في ذروة استعدادها للعطاء.

نهضت من سريرها وانتعلت خفيها المطرزين وجلست تفكر. لن تستطيع اتخاذ اي قرار نهائي قبل ان تهدأ. صحيح انها وعدت بليز بستة من عمرها، لكن هذا التدبير لم يعد عملياً بعد ما جرى بينهما في الليلة السابقة. ربما كان عليها ان تمكث في القصر ريثما يصل فيليب وتصبح وصاية بليز عليه نافذة ونهائية وبعدها ترحل. بوسعه ان يبرر غيابها عندئذ كيفما يشاء. يمكنه ان يقول انها ذهبت الى لندن لزيارة اقاربها او اي شيء اخر. وفي اي حال لماذا تصون شعوره ما دام لم يصن شعورها؟

تذكرت انها لم تكتب لكلير لتخبرها بما جد من تطورات ثم ما لبثت ان طوت فكرة الرسالة لانها ربما وصلت هي نفسها الى لندن قبل اي رسالة. كان من السهل عليها ان تلقي اللوم كله على كلير ولكن قلبها لم يطعها والعقل قال لها ان ذلك ليس عدلاً. وعندما انطلقت في هذه المغامرة المحفوفة بالمخاطر، كانت تحمل في رأسها بعض الأوهام التي سرعان ما تبددت. كانت مثلاً قد نجحت في اقناع نفسها بانها ما رضيت بالزواج من بليز الا من اجل حماية عمها ماكس ولكن الحقيقة هي غير ذلك تماماً. فهي ما برحت تقاوم الفكرة انها ملك بليز منذ وطئت قدماها منزله. كانت اندريا عالقة في فخ من صنع يديها.

ارتشفت القهوة حتى آخر نقطة ثم غسلت فنجانها وتركته على المجلى، ورأت ان تعود الى غرفتها وتكتب رسالة الى كلير واخرى لامرأة عمها. لن تخبرها بالحقيقة كاملة بالطبع لكنها ستخبرها بعزمها على العودة الى لندن في اقرب فرصة وستطلب اليها ان لا تقلقا بشأنها.

كانت تجتاز القاعة الكبيرة عندما سمعت اصواتاً من مكان قريب، ظنت اول الأمر انها كلوتيلد، واستعدت لملاقاتها فهي بلا شك سوف تلقي عليها محاضرة من نوع ما، وسوف تخضعها للاستجواب حول نهوضها المبكر ذاك الصباح.

انفتح باب غرفة الطعام وظهر بليز في حالة يرثى لها. كانت سترته تتدلى باهمال من احد كتفيه وربطة عنقه اختفت. وكان قميصه مفتوحاً حتى الخصر. وقف امامها منبوش الشعر احمر العينين والجذامة تكسر ذقنه. تقلصت عيناه عندما وقع بصره على اندريا وبدا وكأنه يجد صعوبة في تركيز نظره. وكان على الطاولة خلفه زجاجة فارغة. . . وعندما عرفها قال:

«اسعدت صباحاً يا سيدتي، ارجو ان تكوني قد امضيت ليلة هانئة».

تدفقت ذكريات الليلة السابقة الى رأسها. لكن ما لبث ان سحقت تلك الذكريات واستحوذت على كيانها كبرياؤها المجروحة وكرامتها المهدورة واجتاحها غضب شديد.

رفعت رأسها بكبرياء وشموخ قبل ان تجيبه قائلة:

«على الأقل لم يكن علي ان استعين بالشراب!».

«الم تسمعي ابداً بما درج الناس على تسميته بليلة العازب الأخيرة؟ اما انا ففضلت ان اعيش تلك الليلة بعد الزواج وليس قبله. هذا كل ما في الأمر».

«ليس عليك ان تقدم اي تبرير لأعمالك امامي، ايها السيد. واذا اردت ان تصل الى هذا الدرك، فهذا شأنك وحدك».

«لا تستفزيني يا عزيزتي الم تأخذي من الليلة السابقة اية عبرة؟».

هزت كتفيها وتعمدت ان تدير له ظهرها لئلا يرى ما ارتسم على وجهها من مشاعر وقالت بحذر:

«انا لا اريد استفزازك. وما تفعله لا يعنيني في شيء ويتعلق بك وحدك. وهذا كفيل على الأقل بعدم تدخل احدنا في شؤون الآخر».

«انك تخدعين نفسك يا اندريا. فلن اتأخر عن التدخل في شؤونك عندما لا ارضى عن سلوكك».

قال ذلك واقترب منها وراح يتأملها بعينين فيهما كآبة وحزن ثم تابع:

«ولذلك، فانني افضل ان تقللي من زياراتك الى البيت قرب البوابة».

اجفلها كلامه فنظرت اليه وعيناها تقدحان شرراً واجابت:

«لن امتثل لهذا الأمر ولا يحق لك ان تتوقع. . .».

«بل ان لي كل الحق، لا تنسي انك زوجتي وعليك ان تتصرفي بطريقة لائقة».

«ليس هناك شيء غير لائق بالنسبة الى اجتماعي بآلان وودهاوس، انني اجد رفقته مسلية. هذا كل ما في الأمر».

«وهذا بحد ذاته يكفي!».

«انني لا اصدق اذني! لا تنسَ اننا ابناء وطن واحد في بلد غريبة ومن الطبيعي ان نتبادل الزيارات من وقت الى آخر. الا ترى ذلك؟».

«بل ارى ذلك وابعد من ذلك لكنني احذرك يا اندريا. فإن لم تنفذي اوامري سوف يجد ابن بلدك هذا نفسه مضطراً للتفتيش عن مكان آخر يقيم فيه لانهاء دراسته».

«لم اسمع في حياتي كلها شيئاً اقل عدلاً من هذا يا الهي، ان من يسمعك تتكلم هكذا يظن بانك تشعر بالغيرة بدل ان. . .».

«بدل ماذا؟».

«بدل ان تشعر كمن اعطي شيئاً لا يرغب به ولا يشتهيه».

«ربما كان هذا صحيحاً. ولكن اجدني مضطراً الى ان احذرك، فعضتي اشد ايلاماً من نباحي، كما يقول المثل، ولا بد انك اكتشفت ذلك انت بنفسك في اكثر من مناسبة. رجائي ان تأخذي ما اقوله لك كنصيحة من صديق وتعملي بموجبها».

«وهل للصداقة معنى بيننا؟».

سألته بيأس وتمنت، بعد ان رأت ما ارتسم على وجهه، لو تسحب الكلمات ولكن ما قيل قد قيل وكان عليه ان يجيب. ومضت عيناه برهة ثم ما لبث بريقهما ان خبا وجاء صوته عندما تكلم خالياً من اي تعبير.

«ربما انت على صواب. فالصداقة لا تعني الكثير لنا بالنظر الى التدبير القائم بيننا. فما بيننا يمكن ان نسميه تحملاً متبادلاً».

انهى كلامه وهو يتمطى ويمرر اصابعه بين خصلات شعره الأسود. قالت:

«صنعت بعض القهوة وهي لا تزال ساخنة على ما اعتقد».

«انك تغمرينني بلطفك يا عزيزتي. . . لو ان الظروف كانت مختلفة».

وعندما لم تجب اطلق ضحكة خفيفة ثم انصرف. وغمر اندريا شعور بالرضى وهي تهبط الدرج، فالاسبوعان اللذان صرفتهما في ترتيب الحلية

وتحويلها الى غرفة لفيليب اعطيا نتائج طيبة. كانت اندريا، بمساعدة غاستون، قد طلت الجدران بلون اصفر هادىء وغطت الأرض ببساط وعلقت على النوافذ ستائر ذات الوان ونقوش زاهية غلب عليها اللونان البنفسجي والأحمر. وكانت ايضاً قد صنعت مجموعة من الوسائد والارائك وغطتها بقماش ذي الوان ملائمة وكدستها على افريز النافذة الداخلي وحولته الى مقعد مريح. وكان غاستون قد اكتشف خزانة صغيرة في احدى زوايا القصر فاحضرها لها. طلتها اندريا حالاً باللون الأبيض وحولتها الى خزانة للألعاب والكتب وبذلك اصبح عليها ربما ان تشتري بعضاً منها. لم تشأ ان تسأل بليز او تأخذ رأيه في هذا الموضوع لئلا يعتقد بانها كانت تتحرش به. وفي اي حال، لم يكن حتى ذلك الوقت قد ابدى اهتماماً بما كانت تقوم به من اعمال.

وعندما احضر غاستون مزلاجاً وركبه على النافذة وثبت الباب الموجود في ارض الغرفة كما طلبت اندريا، كان يخيم على المكان جو من الكآبة لم تستطع حتى الحمائم التي كانت قد صنعت اعشاشها على السطح المائل، ان تبدده. لم يكن غاستون قد اتى على ذكر ماري - لويز اطلاقاً غير ان صورة ذلك الطفل ما برحت في خيالها. هل دفعه احد من النافذة متعمداً قتله ام انه وقع عرضاً ولقي مصرعه؟».

بدا لها انهماكها غريباً وهي لا تعرف الطفل. على ان ذلك لم يزعجها اطلاقاً، فانشغالها في الاعداد لاستقبال فيليب صرفها عن التفكير في امورها الشخصية. ولطالما حاولت ان تكوّن صورة عنه الا ان بليز لم يساعدها على ذلك واكتفى بالقول بأنه كان كثير البكاء وبانه لم يره منذ كان في الأشهر الأولى من عمره.

لمست اندريا عدم اكتراث عند بليز تجاه الطفل فهو لم يكن يبدي اي اهتمام بكل ما يتعلق به ولذلك لم تفهم سبب اصراره على حقه بالوصاية، اللهم الا اذا كان حب السيطرة والتملك هو الدافع الوحيد لذلك. أوليس في تصرفه تجاهها هي بالذات الدليل على ذلك؟ وهذا الطفل، ألم يكن عليه ان يتغلب على شتى الصعوبات ليتأقلم مع بيته الجديدة؟ ربما كان شعور بليز بالمسؤولية تجاه اخيه المتوفي هو الدافع الحقيقي وراء رغبته في جعل نفسه الوصي الوحيد على فيليب. وكلمة مسؤولية بحد ذاتها كانت في نظر

اندريا مجردة من كل عاطفة واهتمام حقيقي. وفي هذه الحال ألن يكون من الأفضل ان يبقى الطفل مع خالته التي كان من المفروض ان تكون قادرة على منحه الحب والحنان اللذين يحتاجهما طفل في عمره؟

سرت قشعريرة في جسمها فتركت العلية وتوجهت الى المبنى الرئيسي ووقفت في القاعة الكبيرة وراحت تجول بعينيها في ارجائها. عزمت ان توليها عنايتها حالما تفرغ من تجهيز غرفة فيليب. ومع ان القاعة كانت تتطلب جهداً كبيراً لتصبح في حالة مقبولة، الا ان اندريا كانت تعلم تماماً ماذا كان ينقصها وما الذي كان عليها ان تفعله لتضفي عليها جواً مريحاً وجذاباً. توجهت الى المطبخ لتفتش على غاستون ووجدته جالساً يحتسي القهوة وعلى الطاولة امامه اكوام من الخضار والفاكهة بانتظار عودة كلوتيد.

كانت اندريا تجد غاستون صعب المراس ومشاكساً بالاضافة الى جهله اللغة الانكليزية وكانت تعتقد في سرها بانه غالباً ما يتظاهر بعدم الفهم لمجرد ان يراقبها وهي تفتش عن الكلمات المناسبة باللغة الفرنسية.

استقبلها هذه المرة بعينين صافيتين لا مكر فيهما ولا دهاء واشرق وجهه بابتسامة عريضة حين رآها.

«سوف يتساقط الثلج قريباً يا سيدتي».

«آه كلا!».

صرخت اندريا بغيظ. ولكن غاستون بدا واثقاً مما قاله فعاد واكده قائلاً:

«بلى! سوف يسقط الثلج وسوف يقطع الطريق الى القرية».

لم يفرحها قوله وغمرها شعور بالكآبة فلقد كانت تجد متعة في الذهاب الى القرية سيراً على الأقدام ولطالما تخيلت نفسها بصحبة فيليب في نزهة بين الحقول. وعدا ذلك كان المشوار الى القرية المتنفس الوحيد الذي تبتعد به عن القصر واهله. اما اذا قطعت طريق القرية فعلاً فستضطر للبقاء في القصر وربما على امتداد ايام.

نظرت الى غاستون وقالت له:

«اريدك ان تشعل النار في الموقد في القاعة الكبيرة».

حملق غاستون في وجهها وهز رأسه وكأنه اصيب فجأة بالصم ولم يعد يسمع شيئاً. فعادت اندريا وكررت طلبها. ولدهشتها العظيمة

رأت غاستون يهز رأسه ولكن بعلامة الرفض. هذه المرة وسمعته يقول:

«كلا يا سيدتي، هذا غير ممكن».

«بل ممكن لم ار في حياتي موقداً اكبر من الموقد الموجود في القاعة الكبيرة. واذا ما اوقدت النار فيه فسيبدو المكان اقل وحشة».

وكان عليها ان تكرر ذلك القول مرتين ولكنها في المرة الثانية استبدلت عبارة اقل وحشة، بعبارة اقل كآبة، على ان غاستون استمر يهز برأسه علامة الرفض واكتسى وجهه بتعبير غريب وكأنه وجد نفسه فجأة في محنة عظيمة.

اعتقدت اندريا في اول الأمر ان غاستون كان يريد ان يتهرب من العمل الاضافي الذي كان ذلك سيجلبه عليه. رمته بنظرة حانقة ولم تملك الا ان ترى كميات الشحم التي تراكمت على جسمه وما لبث ان خاطبته بنبرة آمرة قائلة:

«يمكنك ان تبدأ بتقطيع الحطب حالما تنتهي من شرب القهوة».

وبانتظار الحطب، اختارت اندريا ان تنظف بنفسها الموقد وتلمع البلاط حوله. وكان خيالها يدور وهي في ذروة انهماكها في هذا العمل حول الجو الدافىء الذي ستضفيه النار على القاعة. وما ان انتهت من عملها حتى اقبل غاستون حاملاً رزمة من الحطب وعلى وجهه علامات التذمر والاستنكار. نظر اليها بغيظ وقال بالفرنسية:

«هذا لا يجوز. علينا اولاً ان ننظف القساطل من السخام».

لم تفهم اندريا بالطبع شيئاً مما قاله وابتسمت له وقالت:

«لا عليك يا غاستون. سوف ترى كم سيبدو المكان افضل بعدما تشعل النار».

هز غاستون كتفيه وكأنه استسلم لقدره المحتوم ووضع الحطب على الأرض قرب الموقد. تناولت اندريا قطع الحطب وصفتها في الموقد بترتيب ثم اضرمت النار فيها وهي تبتسم بفرح. وما كادت تبعد بضع خطوات حتى سمعت صوتاً غريباً ينبعث من الموقد الذي ما لبث ان انفجر مرسلاً دخاناً اسود كثيفاً انتشر في القاعة كلها وغطى كل ما حوله بما في ذلك اندريا نفسها وغاستون بطبقة كثيفة من السخام.

«يا للجحيم!».

صرخت اندريا بغيظ وهي تتراجع الى الوراء لتتقي مزيداً من السخام.

نظرت الى غاستون وكان قد اصبح اسود اللون من رأسه الى اخمص قدميه وتصورت نفسها وحالة شعرها ووجهها. وعندما رأت ابتسامة الشماتة على وجه غاستون لم تعد تتمالك اعصابها فجن جنونها وصرخت بشكل هستيري.

«لا تقف هكذا! تحرك وافعل شيئاً!».

وما كادت تتفوه بهذه الكلمات حتى سمعت بوق سيارة في الخارج معلناً قدوم بعض الزوار. اسقط في يدها ولم تعد تدري كيف ستواجه بليز وهي في تلك الحالة وما عساه ان يقول لزواره مبرراً استقبالهم في قاعة سوداء كالفحم وزوجته كاحدى المهرجات....

نظر اليها غاستون وهز رأسه بتأسف ومرة اخرى تمتم بالفرنسية ما معناه بانه كان يجب ان تنظف القساطل اولاً.

اندفعت بعصبية باتجاه الدرج المؤدي الى الطابق العلوي لتلوذ بالفرار قبل وصول الزوار. ولكن ويا للأسف كان قد فات الأوان اذ انفتح الباب فجأة وظهر فيه بليز نفسه وكان برفقته صبية حسناء وفتى صغير. تسمرت اندريا في مكانها. ها ان فيليب قد وصل اخيراً وبدون ان يعلن عن موعد قدومه.

التقت عينا الفتى بعينيها ورفع اصبعه يدل عليها ويصرخ بصوت حاد.

«ما هذا؟».

ارتفع في داخل اندريا انين صامت ورأت الغضب يحل محل الدهشة على وجه بليز وبهرها جمال رفيقته المميز. كان جسمها متناسقاً بغير طول مفرط. وبدت شديدة الاناقة في ثياب بدت انها اختيرت بعناية وذوق.

حولت الصبية نظرها الى بليز وبشفتين ساخرتين قالت له:

«ألن تقدم الي زوجتك يا عزيزي؟».

«بكل تأكيد».

اجابها بليز وهو يتقدم باتجاه اندريا بضع خطوات وملامحه جامدة

كالصخر:

«اسمحي لي ان اقدم لك سيمون دالتون، خالة فيليب».

اجبرت اندريا نفسها على الابتسام وهي تعي تماماً وضعها غير المؤاتي خاصة انها لم تكن في حالة تسمح لها حتى بمصافحة سيمون. قالت:

«يؤسفني ان يكون استقبالك على هذا النحو يا آنسة. ان قدومك الآن قد فاجأني».

اتسعت ابتسامة سيمون، تلك الابتسامة، التي شعرت اندريا في الحال انها لم تكن لها بل عليها، واجابت:

«يبدو ان بليز نسي ان يخبرك. ألم تصلك رسالتي يا عزيزتي؟».

خنقت اندريا في صدرها شهقة سخط. هل استلم بليز فعلاً رسالة تخبره عن موعد وصولها واخفى الأمر عنها؟ الم يكن يدرك كم تحتاج تلك الزيارة من تحضير مسبق؟ الم ير بعينيه كم صرفت من الوقت لتجهيز غرفة لفيليب؟ شعرت برغبة في البكاء ولكنها تمالكت اعصابها وحررت ذراعها من قبضة بليز وبصوت هادىء قالت:

«اجدني مضطرة الى الاعتذار منكم جميعاً فلدي الكثير لاقوم به في الحال».

«يبدو انك اهملت شيئاً مهماً يا عزيزتي! لم تسلمي على ابن اخي، قريبك الجديد».

استوقفها بليز بصوت لاذع وقع على نفسها وقع السياط.

علا في داخلها انين صامت وحولت نظرها الى الفتى الذي وقف يراقب المشهد امامه. لاحظت اندريا انه لم يكن طفلاً جميلاً بالمعنى المألوف لدى الاطفال. كان نحيلاً الى درجة الهزال شعره الاسود كهالة من الشوك حول وجهه الشاحب. اما عيناه المستديرتان، فكانت تنظران اليها بعداء سافر.

«فيليب».

قالت مرحبة وهي تفتح ذراعيها لتضمه اليها وتعتذر عن ضيافتها:

«ارجو ان لا يزعجك السخام على ثيابي...».

ولم تكمل اذ قاطعها فيليب بانتحابة عالية وركض نحو سيمون ودفن

رأسه في ثيابها وصرخ كأنه يحتمي من الشيطان:

«يا خالتي!».

عضت اندريا على شفتيها ولم تجرؤ ان تنظر الى بليز لئلا ترى ما ارتسم على وجهه من تعبير. هي نفسها لم تكن تتوقع مثل ذلك اللقاء. تمتمت شيئاً عن رغبتها في الانسحاب واسرعت تصعد الدرج الى غرفتها.

حرصت ان لا تلمس شيئاً في الغرفة ودخلت الحمام لتستحم. ولم تهدأ نفسها الا بعد ان ازالت كل السخام عن شعرها وجسمها ورجعت بيضاء ونظيفة.

وما ان مدت يدها لتناول المنشفة الكبيرة استعداداً للخروج من المغطس، حتى انفتح الباب فجأة وظهر بليز.

نظرت اليه مشدوهة وانعقد لسانها وكأنما مسها سلك كهربائي لفت المنشفة حولها مسقطة نصفها في الماء من شدة العجلة وبصوت مخنوق قالت:

«كيف تجرؤ؟».

«لا تكوني طفلة، فمنظر امرأة عارية ليس جديداً بالنسبة الي ويضع مستحضرات من المياه القذرة لا تشكل اي اغراء وانا اؤكد لك ذلك. جئت فقط لاعلمك ان السيدة بريسون تنقل الآن ثيابك من غرفتك لاستقبال سيمون».

«آه».

قالت كمن وجد هذا التدبير الحل الوحيد المعقول ثم اردفت:

«وأنا، الى اي غرفة سأنتقل؟».

«الى غرفتي».

حملقت في وجهه وكادت المنشفة ان تسقط من بين اصابعها التي اصبحت فجأة كالمشلولة. اخيراً قالت بصوت غير مصدق:

«انك تمزح!».

لم اكن يوماً اكثر جدية».

اجابها وهو يرفع يده بتهكم ثم اضاف:

«اعفني الآن من نوبة هستيريا واعلمي انني لم اكن لأختار هذا التدبير

لولا وجود اسباب تدفعني لذلك. اود ان يبدو زواجنا طبيعياً امام سيمون وهي بالطبع ستكوّن انطباعاً اخر اذا ما اكتشفت ان لكل منا غرفته».

«ولكن قد نجد حلاً اخر. ربما غرفة اخرى قرب غرفتك او اي شيء من هذا القبيل».

«لا تخشي شيئاً ففي الغرفة اريكة كبيرة سأنام عليها».

«هذا مضحك. فزواجنا قد استوفى جميع الشروط القانونية ولا شأن لأحد بنوع العلاقة التي تربطنا».

وكادت ان تضيف عبارة «سيمون بنوع خاص» ولكن شيئاً ما استوقفها.

«قلت لك ان لدي اسباباً».

اجابها بصوت بدا طبيعياً برغم الأجواء التي سيطرت على هذا اللقاء.

«اظن انه من حقي ان اطلع على هذه الاسباب».

«لا تتكلمي عن الحقوق يا عزيزتي ولكن اذا كنت مصرة فانني اقول لك بان لي كبريائي».

قال ذلك ونظر في عينيها واطلق ضحكة غريبة قبل ان يضيف:

«غريب ومثير هذا الامر. انا لا استطيع ان اتقبل [illegible] بعد ان اعتقدت بانني اعتدت على هذه البلية التي اصابتني. فلقد مضى وقت كاف ليكسبني مناعة ضد هذه المشاعر ولكنك يا [illegible] قد جعلتني اكتشف العكس تماماً. واود ان يبقى ذلك سراً بيننا ما دامت سيمون موجودة معنا. وعليك ان تشكري ربك لانني لن اطلب المزيد منك».

«كنت على علم بأن هذا سيحدث!».

اجابته بصوت فيه تحد واسنانها تصطك من البرد. وتابعت:

«لقد كنت على علم بموعد وصول سيمون مع فيليب ولكنك لم تخبرني لكي تواجهني بالأمر الواقع».

«لا تعللي نفسك اؤكد لك بانني لم اخطط بهذا الشكل الجهنمي الذي تتصورينه لمجرد ان اجذبك الى فراشي. ذكرت سيمون بالفعل انها سترافق فيليب وتوصله بنفسها ولكنني لم اصدقها واعتقدت ان الأمر مجرد حيلة...».

توقف عن الكلام ونظر اليها بدهشة ثم قال:

«يا الهي! انك ترتجفين ايتها الحمقاء الصغيرة!».

وتقدم منها وقبل ان تفقه ما كان يدور بخلده حملها بين يديه غير مبال بشعرها المبتل ولا بالمنشفة التي كانت تقطر ماء.

انزلها من بين ذراعيه فجأة وباقتضاب قال:

«هيا! نشفي نفسك يا سيدتي ولا تنسي ان هناك ضيوفاً بانتظارك وبان فيليب لم ير غرفته بعد».

وبرغم الفوضى التي عمت المكان بسبب نقل الثياب وتغيير الغرف، استطاعت اندريا ان تجد سروالاً من المخمل الاخضر وسترة بيضاء ذات قبة مرتفعة وارتدتهما بسرعة وهي موقنة في قرارة نفسها بانها في اي حال، لن تتمكن من منافسة سيمون باناقتها وستكون حمقاء اذا حاولت. لم تكن مرتاحة الاعصاب وهي تهبط الدرج بل في حال من التوتر والاضطراب.

كانت سيمون جالسة قرب المدفأة تدخن سيكارة وامامها فنجان من القهوة عندما دخلت اندريا الغرفة، اما فيليب فكان جالساً الى المائدة ويداه حول كوب كبير من الحليب.

ابتسمت اندريا تلقائياً لكي تخفي انزعاجاً غريزياً شعرت به عندما طالعها هذا المشهد العائلي. لم يكن لقاؤها الاول مع فيليب مرضياً غير ان ذلك لم يزعجها لعلمها انه سيكون امامها وقت طويل لتصلح هذا الأمر ولا بد ان تسنح لها فرص عديدة توثق معرفتها.

اختلست نظرة الى سيمون واغاظتها لمحة الاستخفاف التي رأتها في عينيها وهي تجول بعينيها في المكان. تملك اندريا شعور مفاجىء بالكبرياء وشعرت بدافع عفوي يدفعها الى حماية ما يخصها. رفعت اندريا رأسها باعتداد وشموخ وسألتها بتهذيب بالغ:

«هل هذه زيارتك الأولى الى سان جان دي روش يا آنسة؟».

لمعت العينان الماثلتان بنظرة عابثة لم تخف على اندريا وبدون ان يرف لها جفن اجابت:

«يسعدني ان اقول انها الأولى... انها ليست تماماً البيئة التي تستهويني او التي يمكن ان يقع عليها اختياري بشكل تلقائي. ولكن ما لنا ولهذه الرسميات. انا اسمي سيمون وانت اسمك، آه... ماذا قال بليز؟ آه... اندريا».

اسرعت اندريا توافقها في الرأي بالرغم انها كانت تشعر في قرارة نفسها انها لا يمكن ان تصبحا صديقتين. وهي في اي حال لم تكن ترتاح لها او تأنس لوجودها. وفي محاولة يائسة لكسر الجمود حولت اندريا نظرها الى فيليب وقالت بمودة وتحبب:

«اظن ان فيليب يريد ان يرى غرفته».

حملق فيليب فيها وارتسمت على وجهه علامات التمرد والعصيان وقال:

«لم اكمل شرب الحليب بعد».

اجابته اندريا برقة:

«خذ ما يلزمك من الوقت».

وضع الكوب من يده بنكد مريقاً بعض الحليب على الطاولة ثم قال وهو ينزلق عن كرسيه:

«لا اريد ان اشرب المزيد... الا تأتين انت ايضاً يا خالتي سيمون؟».

هزت سيمون كتفيها ونهضت من مقعدها ورمت عقب سيكارتها في الموقد واجابته مبتسمة:

«كما تريد يا صغيري».

والتفتت الى اندريا والابتسامة اياها على شفتيها وقالت:

«هل تمانعين؟ انا لا اريد ان ابدو متطفلة».

«كلا بالطبع، فعلى الرحب والسعة».

اجابتها اندريا بصوت متخشب. لم تكن الأمور تسير كما خططت لها ووجدت انه من المؤسف حقاً ان تسمح لسيمون باثارتها. كانت اندريا قد رسمت في رأسها صورة لفيليب وهو يستعرض تلك الغرفة التي صرفت الكثير من جهدها ومن وقتها في تجهيزها على نحو يحظى باعجابه ولم يخطر في بالها بانها ستريه اياها امام جمهور من المتفرجين وعلى الأخص امام شخص مثل سيمون.

كان غامستون قد زيت مفصلات الباب ولذلك لم يسمع له اي صرير عندما فتحته اندريا التي مدت يدها تجاه فيليب بحركة ودية وقالت له بلهجة مسرحية:

«اهلاً بك في مملكتك ايها السيد الصغير».

تجاهل فيليب اليد الممدودة وادخل يديه في جيوبه واجتاز العتبة.

وقف فيليب في الباب وراح يجول بعينيه في ارجاء الغرفة. كان رأسه الى الوراء ووجهه خالياً من كل تعبير وكأنه قناع غير مناسب لذلك الجسم الصغير. اخيراً نظر الى اندريا وسألها:

«هل هناك شيء اخر يا سيدتي؟».

تقدمته اندريا على الدرج المؤدي الى العلية بصمت وكأنه لا حول لها ولا قوة. وكانت سيمون وراءهما.

مرة اخرى وقف فيليب ينظر حوله بهدوء وصمت. رأت اندريا العينين السوداوين المستديرتين تجولان في انحاء الغرفة.

شيء ما تحرك في وجهه محطماً ذلك الجمود والتحفظ الذي حرص على الاحتفاظ بهما وكأنه ليس طفلاً صغيراً. اخذ نفساً عميقاً ثم نظر الى اندريا وقال وهو يتلعثم:

«هل قمت بكل ذلك من اجلي يا سيدتي؟».

شعرت اندريا بغصة في صدرها لم تعرف مصدرها لكنها اجابته ببطء وبمنتهى الجدية:

«كله من اجلك انت يا فيليب».

التفت اليها وكأنه يراها للمرة الأولى وعلت شفتيه ابتسامة سرعان ما اختفت عندما جاء صوت سيمون من قرب الباب قائلاً:

«انها بعيدة عن باقي غرف القصر يا صغيري. هل انت متأكد انك لن تخاف هنا وحدك؟».

اكتست ملامحه في الحال بتلك المسحة المقلقة من الكآبة والجمود ورفع كتفيه بارتباك ثم اندفع نحو سيمون ودفن رأسه في ثوبها كما فعل سابقاً.

نظرت سيمون الى اندريا وقالت لها بهدوء:

«انه طفل عصبي المزاج».

«فقط عندما يذكره احد بذلك». قالت اندريا في نفسها وهي تنظر الى الرأس الأسود الصغير.

شعرت اندريا بوضعها الشاذ وهي ترتدي ثيابها استعداداً للعشاء. وتضاعف ارتباكها عندما لاحظت وجود مخدتين جنباً الى جنب على السرير الكبير. ولكن الم يؤكد لها بليز بنفسه بانه سيمضي ليلته على الاريكة قرب

النافذة؟ كانت اندريا قد اكتشفت ان الحياة اقل تعقيداً عندما تكون بعيدة عنه وها هو القدر الآن يرميها في طريقه كيفما توجه. وشعورها بانه هو الآخر كان مجبراً على هذا التدبير وبانه لم يختره طوعاً ازعجها كثيراً وزاد في تعاستها.

وجدت اندريا سيمون في غرفة الطعام وكانت رائحة عطرها تملأ المكان وبدت في ثوبها المفتوح من الظهر كثيرة التكلف وبعيدة عن البساطة وكأنها تخلت عن كل الكوابح والضوابط. وبدا فيليب الذي جلس بقربها على الاريكة صغيراً ومنطفياً وكان نظره منصباً عليها وهي تتكلم وتؤشر وتبتسم وكأنه [illegible] في هيكل.

استدار بليز قليلاً عندما دخلت اندريا والتقت عيناهما ثم افتر ثغره عن ابتسامة عذبة ورفع كأسه وكأنه يشرب نخبها. كان تصرف اندريا غريزياً. فاتجهت نحوه ورفعت وجهها اليه فانحنى عليها وطبع على وجنتها القبلة التقليدية.

كانت سيمون تراقب المشهد بعينين وصفتهما اندريا في سرها بعيني افعى.

كان الحديث حول المائدة عاماً واستأثر موضوع التعاونية الزراعية بجزء كبير منه. وبدت سيمون عالمة بكل التفاصيل وهذا ما ازعج اندريا التي وجدت بانشغالها في امور البيت عذراً مقبولاً لابتعادها عن كل تلك الشؤون. وفي اي حال، كيف كان لها ان تعرف كل تلك الأمور ان لم يطلعها عليها بليز بنفسه وهو من كانت تتعمد الابتعاد عن طريقه.

اخذت اندريا على نفسها محاولة جعل فيليب يرتاح بعض الشيء وينفتح لها ولكن محاولاتها المتعددة ذلك المساء باءت جميعها بالفشل وبدا فيليب تعباً وغير راغب في الحديث.

لم تتابع اندريا الحديث الذي كان يدور بين بليز وسيمون لانشغالها بفيليب ولكن استوقفتها فجأة جملة نطقها بليز مقاطعاً سيمون التي كانت تقول وكأنها تجادل وتبدي اعتراضاً:

«كيف تقول هذا..؟ لقد كانت بيل ريفير...».

فقاطعها بليز يقول بنبرة قاطعة:

«بيل ريفير لم تعد موجودة. اختفت وزالت من الوجود».

وبدا لاندريا بان كلمات سيمون احيت في نفس بليز ذكريات مؤلمة اذ ما لبث ان قال:

«ارجوك ان لا تقارني هذا مع بيل ريفيير».

عندما رمته سيمون بنظرة حانقة ووضعت الشوكة من يدها وقالت انما بصوت فيه اعتدال:

«حسناً، كما تريد».

ولكن اندريا شعرت بشكل لا يقبل الجدل بأن سيمون لم تكن مستاءة ابداً من ردة الفعل التي اثارتها كلماتها بل على العكس بدت وكأنها سجلت انتصارا.

حاول فيليب ان يخفي تثاؤبه ولكنه لم ينجح فسلطان النوم كان اقوى منه فنهضت اندريا من مكانها وقالت:

«يا له من طفل مسكين. انه يكاد يغفو على كرسيه. سأضعه في فراشه لو سمحتما».

«آه... دعيني اقوم بهذا العمل عنك».

قالت سيمون وهي تنهض وبدت عيناها كبيرتين في وجهها وارتسم على شفتيها المتدليتين تعبير قاطع فيه رغبة مكبوتة واضافت:

«قد تكون هذه المرة الأخيرة، التي أضعه فيها في فراشه واروي له قصة قبل النوم. اما انت فيمكنك ان تستمتعي بكل طفولته المتبقية. لا تحرميني من هذا يا اندريا ارجوك!».

لم تعد اندريا في وضع مؤات ابداً اذ بدت وكأنها تستكثر عليها بضع لحظات اخيرة مع ابن شقيقتها. وكان هذا صحيحاً الى حد ما اذ كانت سيمون متحرم من الطفل. تمتمت اندريا موافقة ثم رأت فيليب بطرف عينها يسير بجانب خالته وكأنه يحتمي بها. وعندما وصلا الى الباب استدارت سيمون ورمت اندريا بنظرة باسمة من عينيها الماكرتين.

تملك اندريا شعور بالفشل والاحباط وما ان جلست في كرسيها حتى سمعت لعنة تخرج من بين شفتي بليز الذي قال لها معنفاً:

«لماذا سمحت لها بذلك؟ كان عليك ان تضعي فيليب في فراشه بنفسك».

كادت الدموع تنهمر من عيني اندريا وقالت:

«يمكنك ان تتصرف بكرم. الاطفال يحبون هذه الطقوس قبل النوم عادة وفي اي حال قد يساعده ذلك على النوم الهادىء.....».

لم يعلق بليز بشيء ولكنها رأت وجهه متجهماً وعابساً.

نهضت اندريا مستأذنة وقالت:

«اريد ان آوي الى فراشي لو سمحت. كان يوماً شاقاً على الجميع».

نهض بليز ايضاً وتوجه نحو احدى الخزائن وتناول منها زجاجة من الشراب. انحنى لها بسخرية وهو يسكب في كأسه بعضاً منه وقال:

«رافقتك السلامة يا سيدتي. لا تخافي فلن ازعجك اطلاقاً، فكما ترين لدي رفيق هذا المساء».

قال ذلك وهو يشير الى الزجاجة بيده ويسكب منها المزيد في كأسه.

عضت اندريا على شفتيها بغيظ وقالت:

«هناك ايضاً سيمون. فلا شك ان لديكما ما تتحدثان عنه، ذكريات ماضية، ومشاريع جديدة».

لم تدر اي شيطان جعلها تتفوه بهذه الكلمات لانها ما ان انتهت حتى رأته يضع الكوب من يده ببطء وتأمل ويقول بصوت كالفحيح:

«ماذا تعنين بحق الشيطان؟».

«لا اعني شيئاً، ولكن يبدو لي انكما تعرفان بعضكما منذ وقت طويل ولا بد ان هناك ذكريات مشتركة تجمعكما. بيل ريفيير مثلاً».

«ذكريات مؤلمة ولا احب ان استرجعها... ليس لدي ما ابحثه مع سيمون يا عزيزتي».

لاذت اندريا بفراشها تطلب النوم الذي جفا مقلتيها تلك الليلة وراحت تتقلب من جنب الى جنب وهي تشعر بصداع شديد وبألم عميق في نفسها. حاولت عبثاً ان تطرد الصور والهواجس التي غزت مخيلتها.

وبرغم الدفء المنبعث من الغطاء في سريرها، اعترت اندريا رجفة شديدة عندما سمعت الباب يفتح بهدوء. اغمضت عينيها وظلت ساكنة لا تأتي بحركة وقلبها يقفز في صدرها مع كل خطوة من خطوات بليز التي كانت تروح وتجيء في الغرفة. سمعت صرير احدى الخزائن فقدرت انه يفتش عن اغطية وشراشف ثم اقتربت خطواته منها فحبست انفاسها. مد

رأسه فوقها وقال:

«لا تجزعي يا سيدتي، لا اريد سوى مخدة. ولا احسبك تضنين علي بمثل هذا الطلب!».

٧- الثلج سجن كبير

عندما استيقظت اندريا صباح اليوم التالي استبدّ بها شعور غريب بوجود خطأ ما إذ خيّم على المكان سكون غريب وكانت اشعة الشمس تخترق الستائر وتضفي على الغرفة نوراً بهياً.

قفزت من السرير الى النافذة وازاحت الستائر. كان كل شيء ابيض والثلج ما زال يتساقط من سماء رمادية تحمل في تجهمها وعداً بمزيد من الثلج.

نظرت الى ساعتها واكتشفت ان موعد الفطور كان وشيكاً. كادت تتمزق من الغيظ اذ كان عليها ليس فقط ان تتحمل وجود سيمون بل ان تمضي ليالي اخرى في غرفة بليز.

ظنت لاول وهلة عندما دخلت غرفة الطعام ان لا احد فيها لكنها ما

لبثت ان رأت فيليب راكعاً على حافة النافذة وانفه على الزجاج وجسمه كله ينطق بالاثارة والبهجة. التفت الى اندريا وصرخ وكأنه يرى الثلج لاول مرة في حياته:

«ثلج!».

ابتسمت له وحاولت جاهدة برغم هواجسها وافكارها السوداء، ان تشاركه حماسه وقالت:

«اليس جميلا؟ سنخوض معركة بكرات من الثلج بعد الفطور وسأرى اذا كان باستطاعة غاستون ان يصنع لك مزلجة من الخشب».

بدا فيليب متردداً فهو غريب عن اللعب في الثلج ولكنه ابتسم لها بدوره وسمح لها بان تقوده الى المائدة في اللحظة ذاتها دخلت كلوتيلد الغرفة تحمل طعام الفطور.

كان الطقس بالنسبة الى اندريا بمثابة فاجعة حلّت بها وكانت تعلم ان غاستون سوف يضطر للذهاب الى القرية سيراً على الاقدام لاحضار الخبز، فجميع الطرق كانت غير سالكة. وكأن مدام بريسون قرأت افكارها اذ قالت وكأنها تردد كلاماً سمعته:

«يجب ان يكون من يسلك الطريق الى القرية حذراً جداً في هذا الطقس».

وبدا لاندريا ان السيدة بريسون كانت تقنعها بعدم خوض هذه التجربة!

فتح الباب مرة ثانية ودخل بليز وفي اعقابه ريح باردة. وكانت ندف الثلج تغطي شعره وكتفيه. فنزع معطفه وعلّقه على كرسي امام النار قبل ان يجلس الى المائدة معهما.

حيّا اندريا بايماءة وجيزة من رأسه وعندما مرّ بقرب فيليب ربت رأسه بتحبب ومداعبة وقال له:

«اسعدت صباحاً يا ابن اخي».

وجدت اندريا حركته تلك رقيقة وصادقة وكانت في عرفها من النوع الذي يثير عند سائر الاطفال ردة فعل ضاحكة او متملصة ولكن لم يصدر شيء من ذلك عن فيليب. لم تصدق اندريا عينيها فلقد

كان في عيني فيليب رعب حقيقي وكأن انامل عمّه قد لسعته. ولاحظت ايضاً ان بليز هو الآخر قد لاحظ ردة الفعل تلك اذ انكمش في مكانه وبدت الندبة على خدّه الاسمر الذي لفحته الشمس شديدة البروز.

«لماذا يا فيليب».

سأله بالفرنسية ثم اضاف وهو يرفع يده الى الندبة.

«هل هذا ما يخيفك؟».

تسمّرت عينا فيليب على مفرش المائدة وتحوّل وجهه الى لون قرمزي وانتفض بتشنج وتمتم شيئاً بالفرنسية لم تفهم اندريا منه شيئاً. وقف بليز برهة يراقب الرأس المنحني واكتست ملامحه بتلك المسحة من الجمود وخطا نحو كرسيه وجلس ثم تناول ابريق القهوة وسكب لنفسه فنجاناً.

ابتدأت اندريا تثرثر لمجرد ان تكسر الصمت المخيّم على الغرفة. روت لفيليب مغامراتها في الثلج في طفولتها واخبرته عن تمثال الرجل الذي نحتته هي وكلير في الثلج وعن غضب عمّها ماكس عندما اكتشف انها لفّتا عنقه باحسن مشلح عنده. كان جو التوتر الذي ساد الغرفة ملموساً ولم تفلح اندريا بتبديده برغم الروايات والنوادر التي سردتها.

وكأن سيمون اختارت عن سابق تصوّر وتصميم ان تدخل الغرفة وسط هذا الجو المشحون. جالت بعينيها في ارجاء الغرفة وجلست وهي تبتسم وتعتذر عن تأخرها. كان مستحيلا ان لا تلاحظ سيمون ذلك الجو الثقيل الذي سيطر على الغرفة وكان مستحيلا كذلك ألا تعلّق عليه بشيء اذ ما لبثت ان قالت:

«ما القصة؟».

وتناولت كعكة وراحت تقضمها وتنقل نظرها من وجه فيليب المحتقن الى وجه عمّه الذي ارتدى تعبيراً جامداً وساخراً في آن. اشتدّ احمرار وجه فيليب وراحت اصابعه تتحرك بشكل آلي وتعبث بعصبيّة ظاهرة بالكعكة امامه التي تحولت الى كومة فتات في صحنه.

«يا الهي!».

صرخت سيمون وهي ترفع يدها الى فمها بألم مصطنع وتابعت.

«أوه يا بليز... انني آسفة. لا بد انه قال شيئاً عن وجهك. فيليب يا صغيري، لم يكن هذا لطيفاً منك ولقد حذّرتك بان الانسان عليه ان يخفي شعوره ويجب ان تتعلم ذلك».

قال بليز بصوت قاطع:

«الطفل غير ملام. لماذا نتوقع منه ان ينجح حيث فشل الكبار؟».

ولكن سيمون لم تشأ ان تفهم بالاشارة والتلميح فنظرت الى فيليب وراحت توجه اليه سيلا من اللوم والانتقاد ممّا ازعج اندريا وتمنت لو تسكتها لانها بدت لها انها غير مدركة لحجم الاساءة التي كانت توجهها للجميع بدون استثناء.

لم تستغرب اندريا عندما نهض بليز بعد دقائق معدودة وخرج من الغرفة واغلق الباب وراءه بعنف.

استرخت سيمون في مقعدها واطلقت تنهيدة مصطنعة وقالت بدون ان توجه كلامها الى احد بالتخصيص:

«يا للمصيبة! كنت اظن ان بليز قد اعتاد على ما اصابه».

لكن اندريا لم تكن قادرة، من غيظها، على الاجابة ففضلت ان تأخذ الصبي في نزهة الى الخارج.

لم يكن فيليب بحاجة الى اكثر من دقائق معدودة ليكتشف بهجة الثلج. واستقبلت اندريا اول كرة قذفها بها بسرور بالغ وكأنها هدية ثمينة ولأول مرّة منذ وصوله لاحظت اندريا انه ابتدأ يتكلم ويلعب كما يتكلم الاطفال في عمره ويلعبون.

سمعت اندريا في وسط المرح الذي رافق معركة الثلج قرعاً خفيفاً صادراً عن مكان عال فرفعت بصرها لتتبيّن مصدر الصوت ورأت آلان في النافذة العليا. لوّحت له بيدها بمرح ودعته للنزول والمشاركة في اللعب وفي اقلّ من لمح البصر اصبح آلان الذي لم يصدق انه تلقى مثل هذه الدعوة، في وسط المعمعة. على ان اندريا تذكرت متأخرة تحذير بليز لها ولكن لم يكن بوسعها ان تفعل اي شيء.

«من هذا؟».

سألها آلان وهو ينظر الى فيليب ويمدّ له يداً مصافحة.

«انه ابن شقيق زوجي وتحت وصايته وسيقيم معنا».
«انه فتى محظوظ! فهذا المكان هو الجنّة بعينها للأطفال».
بعد فترة قصيرة لاحظت اندريا ان فيليب بدا مجهداً، فهو لم يعتد مثل هذه الرياضة الشاقة. اقترحت على الجميع ان يدخلوا الى الاسطبل علّهم يجدون غاستون. ظنت اندريا في البدء ان فيليب قد يخاف من الجياد ولكنها رأته يقبل عليها بشجاعة ويطعمها الشوفان من راحتيه.
وجدت اندريا غاستون في الورشة منهمكاً في طلاء مزلجة قديمة الطراز، فاطلقت اندريا شهقة فرح. اما غاستون فاستمرت انامله تعمل برشاقة ومهارة ونظر الى اندريا بغبطة وسرور. استطاعت ان تفهم منه ان المزلجة كانت لبليز ولأخيه فيما مضى.
سمعت اندريا شهقة مكتومة صادرة عن شخص يقف بقربها. كان فيليب قد وصل لتوّه وما ان وقع نظره على المزلجة حتى صرخ:
«أهي لي؟».
«انها لك».
أخذ فيليب نفساً عميقاً وشعرت اندريا بيد صغيرة تنسلّ في يدها.
«لقد وجدت طريقك الى قلب فيليب يا اندريا».
جاءها صوت سيمون المتهكم. ابتسمت لها اندريا مكرهة وهي تحاول ان تكتم غيظها.
نظرت سيمون حولها مبتسمة وقالت:
«يا له من مشهد عائلي رائع».
ثم التفتت الى آلان وتابعت:
«لا اذكر انني رأيتك قبل الآن. الا تقومين بواجب التقديم يا اندريا؟».
لم تنتظر ردّ فعل اندريا بل رفعت يدها الى فمها وكأنها تتذكر شيئاً وهتفت:
«آه لقد نسيت، جئت لأدعو الجميع الى الدخول لتناول شراب الشوكولا. سيبرد اذا لم تدخل في الحال».

وما ان انهت كلامها حتى قفزت من مكانها ودسّت ذراعها تحت ذراع آلان ومالت عليه تقول بدلع:
«ويجب ان تأتي انت ايضاً ايها السيد. فشراب الشوكولا من يد كلوتيلد شيء لا يفوت. اؤكد لك ذلك».
كانت تتحدث اليه بالانكليزية بلكنة فرنسية مستعينة ببعض كلمات فرنسية.
وما انهت كلامها حتى خرجت من المستودع وذراعها في ذراع آلان مخلفة اندريا وفيليب وراءهما.
ولم تستغرب اندريا عندما نهض آلان بعد قليل معلناً رغبته في الانصراف ولكن ما ادهشها فعلاً كان خيبة الأمل التي ارتسمت على وجه فيليب الذي ابدى اعتراضه على انصراف آلان المبكر بقوله:
«ولكنك قلت بانك ستعلمني ركوب المزلجة».
«سوف اعلمك».
اجابه آلان بروح طيبة ثم اضاف:
«انما ليس اليوم لان الطلاء لم يجف بعد».
وعندما رأى الكآبة تغلف وجه فيليب قال له مطمئناً:
«لا تقلق يا صغيري فالثلج باقٍ لبضعة ايام».
وجفّ قلب اندريا عند سماعها تلك الكلمات فمعناها ان سيمون باقية معهم طوال تلك المدة. وكانت ما زالت غارقة في تفكير عميق عندما عادت الى الغرفة بعد ان شيّعت آلان للباب الخارجي. طالعها وجه بليز المتجهّم وما ان جلست في مقعدها حتى قال بجفاء واضح:
«اظن بانني عبّرت عن عدم رغبتي في استقباله كضيف في بيتي. يكفي انني قبلته كنزيل في القصر».
انتفضت اندريا بكبرياء وارادت ان تجيبه بما يناسب ذلك الكلام لكن سيمون لم تسمح لها بذلك واسرعت تقول بدهاء وهي تنقل بصرها من وجه بليز المتجهّم الى وجه اندريا الذي علته الحمرة.
«يا الهي! لقد تصرفت بقلّة دراية. كان يجب ان تحذرني يا اندريا. وانت يا بليز، لا توجه اللوم الى زوجتك فأنا من دعا هذا الشاب الى تناول شراب الشوكولا».

توقفت قليلا ثم التفتت الى اندريا وقالت لها وكأنها تنفث سماً:
«لا الومك ابداً على تعلقك به، انه شاب ساحر».
«لست متعلقة به!».
اجابتها اندريا بحدّة لكنها عادت وتوخت الحكمة والحذر ولزمت الصمت.

مرّت ثلاثة ايام وكأنها ثلاث سنوات. وكانت اندريا تفتح عينيها كل صباح على دنيا يكسوها البياض رغم ابتهالاتها الليلية لتحصل جزة ما وتذيب الثلج اثناء الليل.

وكان فيليب يسرع بعد كل نزهة الى سيمون وكله شوق ويروح يحدثها عما قاما به وكان دائماً يقدّم لها شيئاً من ريشة طائر الى حصوة ذات شكل غريب الى زهرة غير عادية الى ما هنالك.

على انه لم يكن ليقترب من بليز وكان يخيّم على المكان جو ثقيل كلما التقيا. وعلى الغداء، كان فيليب يجلس مقوّس الظهر وعيناه مسمرتان على الطبق امامه. كان من الممكن ان تفسّر اندريا تصرّف فيليب ازاء بليز على انه نفور من الرجال بشكل عام لو لم يكن فيليب يرتاح الى آلان ويسعى اليه كلما سنحت الفرصة ويستمع الى احاديثه عن القائد فيرسنجتوركس والحرب التي خاضها ضد الرومان وكذلك الى غاستون الذي غالباً ما كان يساعده في اعماله وينقل معه الحطب.

بدا لاندريا ان الشيء الوحيد الذي كان يروق لسيمون ويستهويها هو التفرّد بالحديث مع بليز باللغة الفرنسية وكأنها تتعمّد اقصاء اندريا عن الحديث. على ان بليز لم يكن يبادلها حماسها في الحديث وغالباً ما اكتفى باعطائها اجابات مقتضبة.

وبما ان سيمون كانت قد درجت على تناول وجبة الفطور في غرفتها كل صباح وعلى ملازمة الغرفة حتى الظهر، لم تكن اندريا ذاك الصباح بالذات مهيأة نفسياً للمشهد الذي طالعها عندما دخلت غرفة الطعام.

كان فيليب مكوراً في المقعد قرب النافذة وكأنه يتّقي هجوماً وشيكاً وفي عينيه رعب حقيقي، وكان بليز يقف فوقه والغضب يسطع من عينيه.

وعندما رآها فيليب اطلق صرخة مكتومة واندفع نحوها يحتمي بها وهو ينتحب. التفت اليها بليز ويداه على خصره ثم قال بنبرة فيها تهكم واستهزاء:
«يا لها من صدفة. فابن اخي يا سيدتي يجد فيك ملاذاً على ما يظهر وظهورك في الوقت المناسب وفّر عليه الكثير».
«ما الحكاية؟».
سألت اندريا وهي تضع يديها حول كتفي فيليب المرتجفتين.
«لقد اخذ بعض الادوات من غاستون ونسي ان يعيدها له وهو ايضاً لا يعرف مكانها وغاستون الآن بحاجة اليها».
التفتت اندريا الى فيليب ورفعت وجهه بيدها وقالت.
«انه عمل طائش يا فيليب. يجب على الانسان ان يعيد ما يستعير الى صاحبه. والآن اين الادوات؟ سنعيدها معاً الى غاستون».
«انها ليست معي».
«اين هي اذن؟».
«لقد اعدتها اليه. لا بد ان غاستون يكذب».
«هناك كاذب واحد في هذه الغرفة».
قاطعه بليز بنبرة جافة.
«ارجوك!».
قالت اندريا وهي تتجه نحوه وتضع يدها على ذراعه ثم تابعت.
«لن يفيد هذا التصرّف في شيء».
«وما العمل اذن؟ هل تظنين انه بامكانك اقناعه بقول الحقيقة؟ حاولت انا ذلك ولكنني لم اجد نتيجة واذا كنت قادرة تكونين قد اسديت خدمة لكل منا».
هزّ كيان اندريا انين صامت وركعت على الارض قرب فيليب وسألته:
«الم تستعر الادوات من غاستون؟».
«اردت ان انحت تمثالا في الثلج للقائد فيرسنجتوركس».
«حسناً وبعدها ماذا فعلت؟ هل تركت الادوات في الثلج؟».

«كلا نبهني غاستون الى ضرورة الاعتناء بالادوات واعدتها اليه عندما انتهيت من نحت التمثال».

«اذن يجب ان تكون الادوات هناك عنده».

قالت اندريا بمرح مفتعل ثم اضافت:

«ربما لم تضعها في مكانها».

«لقد قمت وغاستون بتفتيش دقيق».

اجابها بليز واضاف:

«لم نجد للأدوات اي اثر. والحقيقة ان فيليب ربما تركها في الثلج وهو يخاف ان يعترف».

علا الاحمرار وجه فيليب فجأة وبصوت حاد وثاقب صرخ:

«انا لست جباناً وانا لا اخاف. انت هو الجبان يا ذا الندبة! ولقد تركت ابي يموت وانا اكرهك!».

واندفع من بين يدي اندريا التي حاولت ان توقفه وصفق الباب وراءه.

نظرت اندريا الى بليز وكان وجهه شاحباً والندبة اشدّ احمراراً من عادتها. وعندما رأى التساؤل في عينيها قال:

«وماذا تريدين ان اقول؟ بودي لو استطيع ان ادفع هذه التهمة عن نفسي فاخي مات فعلا وانا لم استطع انقاذه واذا رغب ابنه ان يدمغني بالجبن فهذا شأنه ويصبح عليّ في هذه الحالة ان اعيش مع هذا اللقب ومع هذا..!».

ورفع يده الى خدّه المشوّه. اسرعت اندريا تقول:

«فيليب يقول بانك تركت اباه يموت، وانت تقول بانك لم تستطع ان تنقذه وبين الروايتين فرق شاسع».

«الفرق يكمن في التعبير. الواقع ان جان بول مات وهذه هي الحقيقة».

«كيف حدث كل ذلك يا بليز؟ موت اخيك، الجرح في وجهك وكل شيء؟».

سألته بصوت متهدّج وظنت اندريا بانه سيتجاهل اسئلتها ويظل قابعاً في ذلك الجحيم الخاص الذي اقامه حول نفسه، لكنه وبعد فترة صمت تنهّد في حزن وضاقت عيناه وكأنه يراها لاول مرة وقال:

«قضى جان بول في الحريق الذي التهم بيل ريفيير. الله وحده يعلم لماذا

ظن ان فيليب كان في البيت وحده عندما شب الحريق واندفع كالمجنون برغم محاولاتي ومحاولات العديد من سواي منعه. كان هائجاً وكأنه فقد الادراك ورأيته بعيني يقتحم النيران ورحت اصرخ طالباً اليه العودة وانا على يقين بانه سمعني ولكنه لم يأبه وتابع اندفاعه وفجأة سمعنا دوياً كالانفجار وفقدت الوعي.

وعندما عدت الى وعيي كان عدد من الفلاحين في المزرعة يحملونني من بين الركام ورأيت وجوههم من حولي ثم قالوا لي بعدها بانهم لم يجدوا اي اثر لأخي».

ادار لها ظهره واتجه صوب النافذة وسرح نظره الى البعيد وبعد فترة من الصمت قال:

«انا اشعر مع فيليب، كان جان بول محبوباً من الجميع وفيليب بالذات لم يستطع ان يفهم لماذا مات والده وبقيت انا حياً ولطالما طرحت انا هذا السؤال ايضاً. استطيع ان افهم كذلك لماذا ينكمش فيليب على نفسه كلما رآني فوجهي يذكره بوالده وكيف مات».

«ولكنه كان طفلا رضيعاً آنذاك».

«هذا صحيح... يمكن لأي انسان ان يزرع اي شيء في ذهن طفل صغير».

اعترتها رجفة شديدة وشعرت بحاجة يائسة لأن تسأله، وماذا عن خطيبتك السابقة.

لكن الكلمات ماتت بين شفتيها. كان في ذهنها اسئلة اخرى ملحّة فاسرعت تقول قبل ان تتخلى عنها شجاعتها:

«يجب ان لا تلوم نفسك. فلقد قمت بكل ما تستطيع».

خيّم صمت طويل حتى ظنت اندريا بانه لم يسمعها ثم بصوت بالكاد سمعته اجاب:

«هذا ما حاولت جاهداً ان افعله. لكنه مغاير للحقيقة. كان بوسعي ان امنع وقوع الحادث كله».

هزت اندريا رأسها بحيرة وارتباك ولم تكن تعرف الى ماذا كان يشير، الى موت اخيه ام الى الحريق الذي التهم بيل ريفيير.

اقتربت منه ووضعت يديها على ذراعه وجعلته ينظر اليها. كانت نظرته

جامدة وحول فمه علامات حزن دفين واخيراً قال:

«لا تزعجي نفسك من اجلي يا عزيزتي. واحتفظي بطاقتك واحسانك لقضايا اكثر استحقاقاً من شخصي».

«انها ليست مسألة احسان. كيف يمكنني ان لا اهتم فانا انسانة ولدي مشاعر واحاسيس، وان كنت لا تحسبني اكثر من حجر شطرنج بين يديك تنقله كيفما احببت في هذه اللعبة الرهيبة بينك وبين ضميرك. انا لست آلة صمّاء ولن اتحوّل الى آلة حتى اذا رغبت انت ذلك».

قالت هذا بصوت مرتجف وعينين دامعتين ولم تدر ماذا دهاها فاقتربت منه ووقفت على رؤوس اصابع قدميها وعانقته ثم فجأة عانقها عناقاً قوياً فيه من العلوية بقدر ما فيه من عنف العاصفة.

أزعجتها يداها المرتجفتان وهي تتناول فنجان القهوة مريقة بعض محتوياته على المفرش الناصع البياض وبنبرة حادة لا مبرر لها سألت السيدة بريسون عن مكان فيليب. نظرت اليها مدبرة المنزل بدهشة ولكنها أجابتها بصوت هادىء بانها رأته يتجه الى بيت آلان قرب البوابة واضافت مطمئنة قبل ان تنصرف:

«لا تخافي يا سيدتي، فان آلان سيطعمه جيداً».

لم يكن من السهل على اندريا ان تنهي وجبة الطعام تلك وهي جالسة قبالة هذا الرجل الذي ايقظ في نفسها كل تلك المشاعر والاحاسيس. اخافتها عواطفها وادهشتها وخشيت ان تكون قد وفّرت له فرصة اخرى ليعذبها بقسوة كما فعل ليلة زواجها. وتحول طعم الكعك الى طعم التبن وفقدت القهوة مذاقها اللذيذ وهي تسترجع في ذاكرتها ذلك الذل الذي رأته على يديه. على انها شعرت فيه هو الآخر تغييراً من نوع ما. فلقد كان في عناقه رفيقاً متوسلاً كما لم يكن في السابق وكأنه هو ايضاً اصبح قابلاً للانجراح مثلها.

«استرخي يا عزيزتي».

جاءها صوت بليز الساحر واجفلت مريقة مزيداً من القهوة.

«اعدك بانني لن استسلم لأي رغبة ونحن حول المائدة. افضل الانتظار الى وقت انسب حين لا يعود باستطاعة احد ان يقطع علينا

خلوتنا».

«لم... اعني انني لم...».

ولم تكمل واصطبغ وجهها باللون الاحمر وزاد ارتباكها.

«مسكينة اندريا لن يكون من الانصاف في شيء ان اجعلك تتعذبين على هذا النحو. ولكن سحرك لا يقاوم، صدقيني! والآن عليّ ان اذهب فعندي اجتماع في الصباح وآخر بعد الظهر ولذلك لن احضر على الغداء ولكنني سأعود قبل موعد العشاء».

وكان صوته يحمل وعوداً ومعاني.

وجدت نفسها اخيراً في الغرفة وحدها. انهارت فوق مقعدها وحاولت ان تجمع افكارها. طلب منها ان تذكره وتفكر به ذاك النهار وكأنها تستطيع ان تفعل غير ذلك. ستكون سعيدة جداً ان هي استطاعت ان تحول فكرها عنه ولو لبرهة واحدة. وبرغم تلك الينابيع من المشاعر التي فجّرها في داخلها لم تغب عن ذهنها المشكلات التي كان عليها ان تواجهها. كان فيليب اولى تلك المشاكل.

كانت تشعر براحة سرعان ما عرفت مصدرها. فلجوء فيليب الى آلان وليس الى ميسون امر افرحها واعتبرته كدليل على انه قبل اخيراً فكرة الافتراق عنها وضرورة كسر القيود التي كانت تغلّه وتربطه بها.

كان على اندريا ان تحضر فيليب من عند آلان، فبقاؤه معه طوال النهار من شأنه ان يصرفه عن مسؤولياته وهذا امر لم تكن اندريا لتسمح به.

وكانت وهي في طريقها اليه قد رسمت برنامج النهار في رأسها. كانت عازمة على ان لا تأتي اطلاقاً على ذكر ما حدث ذاك الصباح بين فيليب وعمّه وان تتصرف ازاءه وكأن كل شيء طبيعي. وربما عرّجا على الخيول لاطعامها قبل قيامهما بنزهتهما المعتادة.

خرجت اندريا من غرفة الطعام وذراعاها حول جسمها اتقاء للبرد. التقت بغاستون في غرفة الطعام وكان يحمل سلّة فيها حطب. افترّ ثغره عن ابتسامة عريضة عندما رآها ولمعت عيناه وقال:

«انظري يا سيدتي. لقد ابتدأ الثلج يذوب أخيراً».

«هذا صحيح!».

اجابت اندريا وهي تنظر حولها وترد على ابتسامته بمثلها وكان في قلبها غصّة وفي نفسها مرارة. ابتدأ الثلج حقاً يذوب ولكن هل فات الأوان؟

٨- كابوس الصبي

قرعت اندريا الباب مرّات عدة قبل ان يفتح لها آلان اخيراً. وما ان رآها حتى بادرها بالقول:

«انه نائم».

«هل هو بخير؟».

«هذا يتوقف على تفسيرك للأمور».

قال ذلك وهو يقف جانباً ليفسح لها الطريق لتصعد الدرج ثم تابع:

«انه طفل مشوّش التفكير ومرتبك. ولا شك انك لاحظت هذا الأمر بنفسك».

«لاحظت هذا بالفعل».

كان فيليب يرقد على السرير في زاوية الغرفة وعلى وجهه آثار دموع لم تجف. وكان تنفسه بطيئاً ومنتظماً ووجهه خالياً من أي تعبير.

«لقد راودته احلام غريبة».

قال آلان وهو يمسك ابريق الشاي بين يديه ويهزّه قبل ان يضعه على النار. ثم اردف موضحاً كلامه:

«ما الذي جعلك تخبرينه قصة ماري دنيز وولدها؟».

«لم اخبره أي شيء من هذا. وهل تظنني على هذه الدرجة من الغباء؟».

«كلا بالطبع. لكن كان عليّ ان اتأكد. ربما مدبرة المنزل، ما اسمها؟ كلوتيلد اظن، اخبرته».

«كلوتيلد لا تفعل ذلك. لأنها تعتقد ان مجرد ذكر هذه القصة نذير شؤم».

شغل آلان نفسه بتحضير الشاي. وكان غارقاً في تفكير عميق عندما ناولها فنجانها. ثم قال ببطء وكأنه يزن وقع كلماته:

«هل تعلمين انه يعتقد ان عمّه يريد قتله؟».

«ماذا تقول؟».

صرخت اندريا مذهولة وكاد الفنجان يقع من بين يديها واتسعت عيناها دهشة. اجابها آلان:

«انها الحقيقة. فيليب يحمل في رأسه اعتقاداً راسخاً بأن زوج ماري دنيز كان يحمل هو الآخر ندبة فوق خدّه. وبأن عمه - زوجك هو حفيده الذي سيجعل التاريخ يعيد نفسه، ولهذا السبب بالذات وضعه في العلّية».

رشف قليلا من الشاي واستوى في مقعده قبل ان يتابع:

«ما من مرة حضر فيليب الى هنا الا وراح في سبات عميق. يبدو انه لا يعرف طعماً للنوم وهو في تلك العلّية. حيث يستولي عليه الخوف ويمنعه من النوم. وحدث أكثر من مرة ان سمعته يهذي بكلام لم افهمه في البدء اذ كان بالفرنسية. ولقد سمعته يردد كلمة «الندبة» عدة مرات».

«هكذا دعا بليز هذا الصباح».

قالت اندريا وهي شاردة الفكر. ووضعت يديها حول فنجان الشاي تطلب الدفء وتطرد برداً تسلّل الى كيانها. ونظرت الى آلان... وتابعت:

«اشعر انني مسؤولة الى حد ما. فأنا اخترت العلّية له ولم يدر بخلدي ان قصة ماري دنيز ستصل الى اذنيه، فمثل تلك القصص لا تروى عادة للأطفال وعلى الأخص لطفل مثل فيليب سهل الانقياد».

«ولكن من أين جاء بتلك الفكرة من ان زوج ماري دنيز كان هو الآخر يحمل ندبة فوق خدّه؟».

«لا أدري. انا نفسي لم أكن اعلم هذا».

«بالطبع، فهذه قصة أخرى».

انعقد لسانها من فرط الانفعال لكنها اخيراً قالت:

«هذا منتهى القسوة!».

«بالفعل».

اجابها آلان وهو يرشف آخر قطرة شاي في فنجانه ثم أضاف:

«أنا لا أدري من هي سيمون هذه ولكنني على يقين من ان وجودها هنا هو مصدر الفتنة. ذكر فيليب شيئاً عن خلاف بينها وبين بليز على الوصاية».

«نعم».

اجابته اندريا بصوت خافت وتابعت:

«انها خالة فيليب ولقد ساءها ان يحرمها بليز من حق الوصاية على ابن اختها ولذلك رفعت القضية الى المحاكم لتنظر بقانونية وصية جان بول لوفالييه».

«آه! انها بدون شك جميلة لكنها لا توحي اليّ بالثقة ولا تبدو لي من النوع الذي يتعلق بالأطفال. فأي مصلحة لها بذلك؟».

«لا شيء على ما يبدو».

اجابته اندريا وهي تحدق في وجهه ثم أضافت:

«كان هناك بيت ومزرعة يطلقون عليها اسم «بيل ريفير» وذهبت المزرعة وكذلك البيت طعماً للنيران فوضعت الدولة يدها على الأرض بعد ذلك لقاء اجر بسيط تدفعه للورثة. ولم يبق أي شيء لفيليب. لكنه يبقى

الوريث الوحيد لعمّه».

«الى ان يرزق بليز بوريث من صلبه».

أجابها آلان.

علا الاحمرار وجه اندريا عند سماعها تلك الكلمات وقالت وهي تحاول ان تتمالك نفسها وتبدو طبيعية:

«بالطبع. ان «بيل ريفير» هي سبب هذا العداء المستشري بين بليز وفيليب. لقد تسبب الحريق الذي التهمها بموت جان بول وهو شقيق بليز. بليز يعتقد نفسه مسؤولا عما حدث ويلقي اللوم على نفسه وفيليب كذلك يلقي اللوم كله على بليز. ومما لا شك فيه ان فيليب يحمل في رأسه صورة مشوهة عن الواقع».

«انها ليست المرة الاولى في التاريخ. فهي اعادة واقعية لقصة هاملت. ان يحاول احد تدمير انسان ينفث السموم في اذنيه فهذا يوازي جريمة قتل في نظري».

كان فيليب في تلك الاثناء يتقلب في فراشه ويتمتم كلاماً غير مفهوم. قام آلان واتجه نحوه وانحنى فوقه وقال:

«مرحباً يا صغيري. ها هي امرأة عمك أتت لتصحبك».

جلس فيليب وذراعاه حول ركبتيه وراح ينقل نظره من الآن الى اندريا. واستقرت عيناه اخيراً على اندريا وسألها بصوت كسير:

«أما زال عمي غاضباً؟».

«اعتقد بأنه متألم».

اجابته اندريا بصوت ثابت وبرغم ما اثارت كلمات آلان من هواجس في نفسها استطاعت ان تقول بهدوء:

«كيف تفوهت بتلك الكلمات يا فيليب؟».

هزّ الطفل كتفيه بكآبة وقال:

«ولكنها الحقيقة».

اجابها فيليب باقتناع.

تنهدت اندريا بصمت وقررت ان لا تسترسل في ذلك الحديث ليقينها بأنها لن تخرج منه بنتيجة مرضية.

مدّت اندريا يدها لفيليب مشجعة وقالت:

«هيا يا عزيزي. تعال والا ظنت دلفين بأنك هجرتها. يجب ان تقدّم لها الطعام».

كانا قد اقتربا من الاسطبل عندما سألته اندريا بلطف:

«هل تودّ ان انقلك الى غرفة أخرى يا فيليب؟».

اكتفى بالنظر اليها ولم يجبها ورأت ان توضح اكثر فقالت:

«يوجد غرف كثيرة في القصر وبامكانك اختيار الغرفة التي تعجبك».

ابتلع ريقه بعصبية وهزّ رأسه علامة النفي.

«هل أنت متأكد من ذلك؟ يمكنك ان تختار غرفة في البناء الرئيسي وتكون عندها قريباً مني. صحيح ان العلّية بعيدة نوعاً ما ولكن يمكنني ان اسمعك ان انت ناديتني في الليل».

احنى رأسه وشرد فكره بعض الشيء ثم اجابها:

«انني اشكرك يا سيدتي ولكنني افضل البقاء حيث أنا».

كان غاستون على باب الاسطبل عندما وصلا اليه. وما ان وقع نظره على فيليب حتى انفجر بكلام غاضب بالفرنسية وكان يصرخ ويلوّح بيديه.

تنهدت اندريا بنفاد صبر وقالت:

«ما الأمر الآن يا غاستون؟».

«لا شيء يا سيدتي. فقط انظري بنفسك».

قال ذلك وهو يشير بيده الى كومة من الخشب كانت على الأرض بقربه. كيف كان لأندريا ان تعلم ان كومة الخشب تلك ما كانت الا المزلجة التي كان غاستون قد انفق جهداً مضنياً لاصلاحها وتجديدها... واستقرت المطرقة التي افتقدها غاستون في الصباح فوق كومة الخشب وكأن من انهال على المزلجة ضرباً قد حلّ به التعب فجأة فألقاها من يده.

صعقت اندريا لهذا المشهد ونظرت الى فيليب الذي وقف جامداً كالتمثال بقربها وشعرت وهي ممسكة بيده بأنه كان يرتعش من رأسه الى اخمص قدميه.

انحنت اندريا فوقه ونظرت في عينيه وهي تخاطبه قائلة:

«لماذا فعلت ذلك يا فيليب؟ ألأنها كانت لعمّك بليز؟ لقد كانت لوالدك ايضا. والآن انظر ما حلّ بها!».

تملّص من بين يديها واندفع يعدو. التقط غاستون المطرقة ونظر الى اندريا بحيرة واضحة وقال لها بصوت كئيب:

«انظري يا سيدتي. هذه هي المطرقة التي كنا نبحث عنها. لكن أين الأدوات الباقية. لماذا يريدها يا ترى؟ لا شك ان في داخله شيطاناً».

«شيطان اليأس» قالت اندريا في سرّها وهي تبتعد بخطى مترنّحة. ازعجتها هذه الحادثة كثيراً وان دلّت على شيء فعلى جنوح الى العنف مخيف. ما الذي دفعه الى ذلك العمل وهو الذي أحب المزلجة من أول نظرة. وأقبل عليها وراح يلعب ويتسلى بها كسائر الأطفال؟

لم تدر اندريا ان كان عليها ان تلحق به. فخبرتها في التعامل مع الاطفال كانت محدودة ولم يكن لديها من تستشيره في مثل تلك الامور.

ترقرقت الدموع في عينيها وهي في طريقها الى القصر وما ان وصلت اليه حتى اغمضت عينيها واسندت ظهرها الى الباب الكبير مستمدة من صلابة الخشب ومتانته عزماً جديداً.

«ماذا بك؟ هل انت مريضة؟».

جاءها صوت سيمون التي وقفت في اسفل الدرج وفي يدها سيكارة راحت تنفض رمادها بعصبية لم تلحظها اندريا فيها قبل تلك اللحظة.

«أنا بخير».

«أين فيليب؟ ابتدأت باعطائه بعض الدروس وحان وقت الدرس الآن».

«لا بد انه يلعب في الخارج».

اجابتها اندريا بشكل عفوي وفي داخلها صوت يقول بأن سيمون لا يجب ان تعرف ما دار من احداث في الصباح.

«يلعب ام يجلس مقطباً جبينه؟ انك تنسين مدى معرفتي به يا عزيزتي! وأنا اقول لك بأنه طفل غريب الأطوار. فهو صاحب مزاج

متقلّب. وهو ليس قادراً على حجب الحب فقط، بل انه قادر على الكراهية».

غطت اندريا عينيها بيديها وبصوت وكأنه آتٍ من مكان بعيد قالت:

«ما هذه اللعبة التي تلعبينها يا سيمون؟ ما الذي تريدينه بالضبط؟».

«ليس هناك أي لعبة يا عزيزتي اندريا، صدقيني. كل ما في الأمر انني رغبت في ان اجعلك ترين الأمور على حقيقتها. لا أدري ما الذي قاله لك بليز ولكن الا ترين انه من الأفضل لفيليب ان يظل معي؟».

وفجأة ارتسمت على وجهها ابتسامة ساحرة وأسدلت على عينيها ستاراً من الرموش الطويلة السوداء وتوجهت الى اندريا تقنعها قائلة:

«من السخف ان نكون أنا وأنت على خصام. فاذا اقنعت بليز بالتخلي عن فيليب أخذته وخرجنا من حياتكما في الحال. أما اذا بقي معكما فسوف ترين كيف ستتضاعف مشاكلك بعد ذهابي».

«انك حقاً مقنعة. لكن يجب ان تقنعي بليز وتتكلمي معه في هذا الموضوع وأعتقد بأنه مصمم على الاحتفاظ بفيليب مهما كان الثمن».

رمت سيمون بعقب سيكارتها على الأرض وداست عليه بقدمها وقالت بلؤم:

«لقد ابتدأ فعلا يدفع الثمن! وكان الاستحقاق باهظاً. أليس كذلك؟».

توقفت قليلا لتتأكد من وقع كلامها على اندريا ثم تابعت:

«حتى أنا استطيع ان اشفق على بليز. ليس بقليل عليه ان يضطر للاحتفاظ بزوجة لا يربطه بها أي رابط غير ذلك الطفل! لا شك ان زواجكما كان زواجاً قسرياً وأنا لم انخدع به على الاطلاق».

«أظنك تعنين زواجاً اضطرارياً. ولكنك على خطأ يا آنسة. ربما كانت البداية هكذا. لكنني اصبحت احب بليز وأعتقد انه ابتدأ يبادلني هذا

الحب».

«مشاعرك نبيلة وآسرة يا سيدتي. غير انك ساذجة وتسمحين لعواطفك ان تتغلب عليك. أنا لا أشك لحظة في ان بليز يسرّه ان يجعلك تعتقدين هذا فهو لا يستطيع البقاء عازباً. لن يدعك تتذمرين ولن يكون لديك ما تشكين منه. انه عاشق ممتاز، هذا ان استطعت ان تتغلبي على نفورك من وجهه. أنا شخصياً لم استطع!».

«ماذا تعنين بهذا الكلام؟».

«الا تعرفين حقاً؟ فلقد كنا أنا وبليز خطيبين».

«قبل الحريق الذي التهم بيل ريفير؟».

«بالطبع. وعندما اخرجوه ورأيت ما حلّ بوجهه، اعترف بأنني جننت ولم استطع النظر اليه، وفي الحال تملكني شعور غريب وهو انني لن ادعه يلمسني ثانية. كان هذا بالطبع مؤلماً لكلينا. ولكن في النهاية كان اسهل عليّ من محاولة اخفاء نفوري ومشاعري فيما تبقى لنا من حياة معا. لقد كان ذلك مستحيلا. . . الآن ربما فهمت السبب في اصرار بليز على حرماني من الوصاية على فيليب. هذه طريقته للانتقام مني لأنني فسخت الخطوبة. . . كان من الممكن ان أكون الآن السيدة لوفالييه! أليس هذا غريبا؟ أتدرين انه ما زال يريدني؟ لكنني قطعت عليه الطريق. ليس بسبب الندبة فقط ولكنك زوجته وتستحقين ولاءه. ولهذا عليك ان تشكريني».

«شكراً لك».

اجابتها اندريا بصوت متخشّب واستأذنت بالانصراف.

«تفضلي».

اجابتها سيمون بالفرنسية وهي تقف جانباً لتفسح لها الطريق. ثم استوقفتها فجأة قائلة:

«دقيقة من فضلك. لقد منحتك بليز وأنت الآن مدينة لي وعليك ان تمنحيني فيليب في المقابل».

استدارت اندريا لتواجهها مستجمعة كل ما تبقى لديها من رباطة جأش وقوة اعصاب وأجابتها:

«أنا لا ادين لك بشيء يا آنسة. اما فيما يختص بفيليب فانك لا

تستحقينه، وبليز ايضا لا يستحقه».

الآن فقط اتضحت امامها الصورة كاملة وكان عليها ان تتخذ قرارها النهائي.

دخل غاستون غرفة الطعام ليشعل نار الموقد وما ان رأته اندريا حتى سألته اذا كان قد رأى فيليب. واستطاعت ان تبتسم له بمرح عندما اخبرها بأنه قد رآه مع خالته يقومان بنزهة.

اشتد هطول المطر مع هبوط الظلام وغمرت المياه كل شبر في الخارج وابتدأ الثلج بالهبوط.

ظنت ان الاغتسال بالماء الساخن سيريح اعصابها ولكنها خرجت من الحمام بأعصاب مشدودة كأوتار الكمان وجلست أمام المرآة تسرّح شعرها وتترقب خطوات بليز في الرواق.

سقطت الفرشاة من يدها عندما وصل اخيراً وكأنها اصيبت بالشلل وأرادت ان تكمل زينتها لكنّ يديها المرتجفتين لم تسعفاها.

التقت نظراتها في المرآة. كان يبتسم وظنت اندريا ان قلبها سيتوقف عن الخفقان. كانت في وجهه رقة وفي نظرته حنان.

اجتاز الغرفة بخطوات سريعة وعندما اصبح بجانبها انحنى فوقها وطبع على عنقها قبلة افقدتها توازنها ثم اتبعها بأخرى جعلت الدنيا تدور من حولها.

«ثوب أسود؟ وهل أنت في حداد يا جميلتي؟».

ارادت ان تصرخ في وجهه وتقول انها كانت فعلا في حداد على ما تبقى لهما من أيام معاً لكنها فضّلت الصمت في هذا الموضوع وأجابته:

«ظننته انيقاً. الا يعجبك؟».

«لست متأكداً من اعجابي به، ولكن اعتقد ان فيه ما يعوّض عن سواد لونه».

ارتعدت فرائصها وهي تشعر بأنامله. فقال لها مطمئناً:

«لا ترتجفي هكذا يا عزيزتي».

وكان في صوته حنين وفي نظراته رغبة ثم أضاف:

«لا بد انك علمت وأنت ترتدين ثيابك هذا المساء بأنني سأجعلك

تخلعيتها لاحقاً».

انتزعت نفسها من بين ذراعيه وقالت:

«ولكن ليس الآن، ليس هكذا يا بليز. فالعشاء سيكون جاهزاً بعد قليل والجميع بانتظارنا».

«فلينتظروا».

قال باعياء وكسل واحتواها بين ذراعيه. حاولت ان تتملص من بين يديه وتشبثت بالثوب:

«كلا! ارجوك يا بليز، دعني».

جمد في مكانه ثم رفع رأسه ببطء وأطال النظر اليها وفي عينيه بريق غريب كاد يفقدها اعصابها ثم قال:

«اذا كانت هذه مشيئتك يا سيدتي فليكن».

وجدت سيمون وحدها في غرفة الطعام وكانت تقف قرب النافذة وترتدي ثوباً أبيض. فابتسمت بمكر وكأنها شاهدت جميع فصول المسرحية التي دارت بينها وبين بليز منذ لحظات.

نظرت اندريا حولها وقالت:

«أين فيليب؟».

«انه في غرفته وسيتناول عشاءه فيها».

اجابتها سيمون واتجهت الى خزانة جانبية وسكبت لنفسها مقبّلاً ورفعت الكوب بحركة ساخرة وكأنها تشرب نخب اندريا وقالت لها:

«اهلا بك. اعتقد بأن فيليب اخذ برداً اثناء نزهة الثلج».

لم تجبها اندريا في الحال وبعد قليل من الوقت قالت:

«في هذه الحال سأصعد اليه لأتفقده».

«كما تشائين. قد تجدينه مستغرقاً في النوم الآن وسيكون عليك ان توقظيه».

«اعدك بأنني لن اوقظه».

دخلت اندريا العليّة ورأت فيليب مستلقياً على ظهره واحدى ذراعيه خارج الأغطية. كان تنفسه منتظماً ولكنها عندما لمست جبينه وجدته ساخناً بعض الشيء. وكان على المنضدة قرب سريره قنديل صغير.

سمعت اصواتاً من غرفة الطعام وأيقنت انه بليز. اخذت نفساً عميقاً

ودخلت الغرفة. كانت سيمون تقف قبالة بليز وتكاد تلتصق به ثم رفعت يدها ببطء واثارة واحاطت يده التي كانت ممسكة بالكأس. رجع بليز بضع خطوات الى الوراء عندما رأى اندريا تدخل الغرفة وبتهذيب وذوق سألها وهو يرسل اليها نظرة فيها تحذير واضح:

«هل تودين كأساً من الشراب يا سيدتي؟».

قبلت اندريا عرضه وشكرته. وخطر لها ان تعتذر لتقطع خلوتهما وتنسحب لكنها عادت وآثرت الحكمة والصمت حفاظاً على كرامتها.

«انك شديدة الشحوب يا عزيزتي».

جاءها صوت سيمون وكأنه من واد سحيق وسمعتها تضيف باهتمام مصطنع:

«ارجو الا تكوني قد تعرضت للبرد مثل فيليب».

«لا اظن ذلك».

اجابتها اندريا وأضافت:

«ولكنني اشعر بصداع هذا المساء».

تناولت اندريا الطعام بشكل آلي وبدون شهية وكانت عينا بليز ترقبانها عن كثب ثم ما لبث ان قال بتهكم:

«هل فقدت شهيتك الى الطعام يا عزيزتي؟».

ولم يغب عن بالها ما تضمنته كلماته من معنى فاحمرّ وجهها وزاد ارتباكها. وما ان وصلت السيدة بريسون بالقهوة حتى وجدت اندريا الفرصة مؤاتية لتستأذن بالانصراف ببضع كلمات متقطعة.

لو كان بالباب قفل لأوصدته وتحدّت غضبه. ولكن بغياب القفل، لم يكن بوسعها الا ان تحضّر الأريكة مثل كل مساء وان لم يستعملها هو فلن تتردد هي في الانتقال اليها.

اسرعت ترتدي قميص النوم برغم الصوت الذي علا في داخلها يدعوها ألا تفعل. ارتدت المبذل فوقه وشدّت خصرها الناحل بالحزام وجلست تنتظر قدومه. وأبقت القناديل مشتعلة. فلم تكن مهيأة لليلة مع بليز في الظلام.

انحنت فوق الأريكة تسوي تغضيناً لم يكن هناك، وفجأة رأت بليز يقف

وظهره الى الباب.

تسمّرت في مكانها مصعوقة. كيف دخل الغرفة بدون ان تسمع وقع خطواته؟

تعلّقت عيناه بعينيها في صمت وبعد قليل قال:

«هذا الصباح ضممت الى صدري امرأة ارادتني بقدر ما اردتها! اين ذهبت تلك المرأة؟ ومن هي هذه الطفلة التي تقف امامي الآن وتظهر لي كل هذا العداء؟».

«ما تقوله لا يمت الى العدل بصلة!».

«لا يهمني مفهومك لما هو عدل وحق. كل ما ابغيه هو جواب بسيط لسؤال بسيط، أنا هنا لأسأل عن المرأة التي عرفتها هذا الصباح. هل هي موجودة؟».

تحوّل نظره الى الأريكة وعندما استوعب الصورة وما كانت توحيه، ضاقت عيناه وقال:

«ما معنى هذا؟».

«لا تعقّد الأمور يا بليز. لم يتغير أي شيء بعد».

«كل شيء تغير وأنت تعرفين ذلك. لقد انتهت المسرحية يا عزيزتي وأنت زوجتي وستقاسمينني فراشي».

انتظر برهة ثم خلع قميصه وقال وهو يفتح ذراعيه ويدعوها اليها:

«الا تأتين؟».

وعندما لم تتحرك قال:

«لا تجعليني آتي بك بالقوة يا اندريا».

«اني اكرهك».

«لا فرق».

تمتمت قائلة:

«كان الأمر يختلف هذا الصباح».

أجابها:

«هذا الصباح كانت العاطفة الصادقة تجمع بيننا لكن هذه الليلة، ولأسباب اجهلها، اخترت ان يجمعنا الواجب. القرار لك يا

عزيزتي!

«انك تطلب الكثير. لست بالنسبة اليك الا زوجة تقوم بمهمتها. انت نفسك قلت ذلك واذا كنت تبغي المزيد فلماذا لا تطلبه من سيمون؟ يبدو انها لانت تجاهك».

ارتدت ملامحه تعبيراً شيطانياً وقال وهو يصرّ بأسنانه:

«لن اضربك، كلا ولكن في الصباح ستكونين قد تلقيت درساً لن تنسيه».

شقّ السكوت صوت بعيد ظنّت اندريا انه صادر عنها ولكن...

«فيليب».

صرخت وبها رعب غريب. وبقفزة سريعة كان بليز على قدميه يلفّ نفسه بمنشفة والتقط المبذل عن الأرض ورماه باتجاهها وهرع خارجاً.

كانت الصرخات تصمّ الآذان وعندما وصلت اندريا الى العلّية اخيراً، وجدت السيدة بريسون في الغرفة وكانت قد سبقتها اليها وانحنت فوق فراش فيليب تحاول عبثاً ان تكلمه. كان جاثماً على طرف السرير وجسده الصغير يرتعد من رأسه الى اخمص قدميه. وكانت عيناه تنطقان بالرعب وكذلك شفتاه. التفتت اليها السيدة بريسون وقالت بألم:

«سيدي، سيدتي».

«اسكت يا فيليب! ما بك؟».

قال له بليز وهو يقترب من فراشه وينحني فوقه مادّاً ذراعيه ليلتقطه بينها. انتفض فيليب برعب ورمى نفسه على قدمي اندريا وتشبث بساقيها وبصوت متهدّج ووجه بللته الدموع راح يصرخ:

«صاحب الندبة، صاحب الندبة، لقد أتى ليأخذني، اجعليه يذهب ارجوك!».

«اسكت يا عزيزي».

قالت اندريا وهي تنحني فوقه وتربت على رأسه بحنان وأضافت:

«أنا هنا الآن. لن يؤذيك شيء. لقد كنت تحلم؟».

«كان هنا. أتى ليأخذني. كان سيقتلني ولم اجد مكاناً اختفي فيه».

«ما هذا الهراء؟».
قال بليز بضيق وقلق وهو يذرع الغرفة. وما ان سمع فيليب صوته حتى اطلق صرخة اخرى وقال:
«صاحب الندبة، ها هو!».
«هذا عمك بليز يا حبيبي وهو يحبك ويريد ان يعتني بك. اخبرك احدهم قصصاً سخيفة تحولت الى كابوس مزعج. هذا كل ما في الأمر».
«اجعليه يذهب، ارجوك».
نظرت اندريا الى بليز مستعطفة ولولا عضلة متشنجة كانت تنتفض في وجهه لقالت انه تحوّل الى تمثال من حجر. وبعد فترة تأمل قال لها:
«دعيه لكلوتيلد. ستهتم بأمره. تعالي معي».
«دع اندريا. انك شرير وهي لا تحبك ولا تريد ان تذهب معك».
صرخ فيليب واندفع كالسهم وغرز اسنانه بيد بليز الذي صرخ وهو يسحب يده ويتأمل الآثار التي احدثتها اسنان فيليب:
«يا للشيطان».
غطّت السيدة بريسون وجهها بيديها واتسعت عيناها في دهشة عظيمة بينما تسمّرت اندريا في مكانها تنتظر تفجّر براكين الغضب التي، ويا للغرابة، لم تنفجر بل حلّ مكانها طيف ابتسامة ارتسمت على شفتي بليز، لم تفهم اندريا معناها، وقال:
«أصبح لديك من يدافع عنك ويحميك يا سيدتي. ابقي معه قليلا ريثما يستغرق في النوم ولكن لا تدعيني انتظر طويلا. اما انت يا ابن اخي فلي معك حديث طويل غداً صباحاً ويمكنك عندئذ ان تخبرني قصصك كلها، فهي تثير اهتمامي».
سمعت اندريا فيليب يتنفس الصعداء وهو يسمع وقع خطوات عمه تبتعد.
قالت السيدة بريسون:
«دعيني اهتم به».

«سأبقى معه بعض الوقت».
اجابتها اندريا وهي تهز رأسها ثم أضافت:
«من الأفضل ان يبقى معه احد حتى الصباح ربما لعله استيقظ مرة اخرى. اريد ان ابقى هنا قليلا وعندما يستغرق في النوم يمكنك ان تأخذي مكاني».
ارجعت اندريا فيليب الى فراشه وغطّته جيداً وجلست قبالة سريره. وبعد برهة شعرت اندريا بيد صغيرة تتسلّل الى يدها. أثار هذا المشهد مشاعر السيدة بريسون التي اغرورقت عيناها بالدموع وخرجت من الغرفة وهي تطلق التنهيدات. قال فيليب هامساً:
«اصبحنا وحدنا الآن».
«نعم».
اجابته اندريا بحنان ورقّة ثم قالت:
«والآن يا عزيزي هلا اخبرتني مما اخافك هكذا؟».
«جاء صاحب الندبة ليقتلني ويرمي بي الى الساحة».
اجابها فيليب بقناعة تامة وعيناه تنظران اليها بتوسل.
«هذا ما تدعو عمك بليز به، وكيف يكون قد جاء الى هنا اذا كان كل الوقت برفقتي؟ أترى كم هذا مستحيل؟ بالاضافة الى ذلك هو يحبك ويريد ان يرعاك ووالدك بنفسه طلب اليه ذلك لأنه يعرف انه الشخص الوحيد الذي يمكنه ان يحبك ويحنو عليك كأنك ابنه تماماً».
شعرت اندريا بعدم رغبة فيليب في متابعة ذلك الحديث، الا انها تابعت قائلة:
«قل لي يا فيليب، من الذي قال لك ان زوج ماري دنيز وقاتل ولدها كان يحمل ندبة على خدّه؟».
قطب جبينه وبدا انه سيمتنع عن الاجابة ولكنه بعد قليل قال:
«لا أذكر».
«لا بد انك تذكر. اعتقد انه الشخص نفسه الذي اخبرك عن العلّية وعن كل ما جرى فيها من احداث».
«كانت مجرد رواية وأنا احب هذه القصص لذلك لا يجب ان تغضبي على خالتي سيمون».

«لست غاضبة».

قالت وهي تجهد نفسها لتبقي صوتها طبيعياً وأضافت:

«احياناً كثيرة يسيء الانسان فهم بعض الحقائق. حتى الخالة سيمون يمكنها ان تسيء الفهم. وزوج ماري دنيز لم يكن يحمل ندبة فوق خدّه، بل كانت تنقصه الشجاعة لينقذ حياة انسان آخر مثل ما فعل عمك بليز مع والدك. اعتقد انه يوجد صورة له في مكان ما في هذا القصر. سنحاول العثور عليها غداً وعندها سترى انه لم يكن يحمل ندبة».

ظل فيليب صامتاً بعض الوقت قبل ان ينفجر قائلاً:

«لكن عمي بليز يريد فعلاً ان يقتلني من اجل المال كما فعل مع ابي».

«المال؟».

سألته اندريا وقد ابتدأت الحيرة تنهش نفسها فلقد كانت اول مرة يأتي فيها على ذكر المال.

جلس فيليب في فراشه وقال موضحاً الأمر:

«المال هو التعويض عن «بيل ريفير» بعد ان التهمتها النيران. ان عمي بليز هو من اشعل النار فيه لكي يحصل على التعويض».

«هل تعني ان بيل ريفير كانت مؤمنة؟».

سألته اندريا مستفسرة. احنى فيليب رأسه علامة الايجاب ثم قال:

«كانت مؤمنة لقاء آلاف وآلاف من الفرنكات. وكان عمي بليز بحاجة الى هذا المبلغ لذلك اشعل فيها النار وتسبب في موت ابي».

شعرت اندريا بدوار في رأسها وبغثيان وحاولت ان تسترجع كلمات بليز وهو يروي لها الحادث. ألم يقل انه كان بامكانه ان يمنع الحادث؟ وفيليب صادق فيما كان يقول اذن. لقد احرق بليز المزرعة وتسبب في موت اخيه من اجل ان يحصل على قيمة التأمين. وهذا هو السبب الذي من اجله يتملكه الشعور بالذنب وتعتريه المرارة كلما اتى على ذكر الحادث. اكمل فيليب كلامه قائلاً:

«واذا متُّ أنا الآن فان كل شيء سيؤول اليه انه فقير الآن وسيصبح غنياً».

«اسكت يا حبيبي».

قالت له اندريا بصوت خافت ثم اضافت:

«أريدك ان تبعد هذه الأفكار السوداء عن رأسك الصغير. والآن اخلد الى النوم ويجب ان تنال قسطاً من الراحة».

قالت اندريا ذلك وكأنها مخدّرة. فلم تكن تشعر بشيء الا بيقين اكيد بأن الألم آت لا محالة.

٩- نهاية الخرافة

فتح غاستون الباب فجأة وكان يمسح العرق المتصبب من جبينه. نظر الى اندريا وقال بفظاظة:

«السيد يبحث عنك».

ابتلعت ريقها. وقبل ان تخرج من المطبخ التفتت الى غاستون قائلة:

«اريدك ان تنقل سرير فيليب من العليّة الى الغرفة التي سأريك اياها».

رفع غاستون عينيه الى السماء وكأنه يتضرّع الى الله ويشكو ظلامة نزلت به وقال:

«هل نسيت ما تطلّب نقل السرير الى العليّة من عناء؟ والآن عليّ ان انقله منها، وماذا بعد ذلك، وبعد ان نقلت حقائب الآنسة دولاتور الى السيارة؟».

ارسلت اندريا باتجاهه ابتسامة عذبة وبصوت لا يرحم قالت:

«لا تخش شيئاً. لن يميتك هذا الجهد».

عندما وصلت اندريا الى القاعة استطاعت ان ترى من خلال الباب المفتوح سيارة سيمون قرب المدخل. وما هي الا لحظات حتى رأت سيمون نفسها ولم تكن في اناقتها المعتادة. كان شعرها مشعثاً وكانت تلهث. نظرت الى اندريا وقالت لها بمكر:

«هل جئت لتتأكدي من انصرافي يا اندريا؟».

«لا ارى ضرورة لذلك».

اجابتها اندريا بصوت هادىء وتابعت سيرها. فهي لم تشأ، حفاظاً على كبريائها على الاقل، ان تسمح لسيمون ان تعرف بانها كانت عالمة بما جرى الليلة السابقة.

«بالطبع».

اجابتها سيمون واضافت:

«على ان اقامتي هنا كانت مثيرة ولقد اعطت النتائج التي كنت اود تحقيقها ولو بطريقة مختلفة».

توقفت قليلاً ثم رمقت اندريا بنظرة فيها من الكراهية ما فيها من المكر وقالت:

«يسعدني ان اترك لك الاجزاء المبعثرة يا عزيزتي. اجمعيها ان كنت تقدرين!».

تذكرت اندريا وجه فيليب المبلل بالدموع ودوت في رأسها صرخاته المستغيثة فتقدمت بضع خطوات وبنبرة فيها تهديد قالت:

«قد لا املك القوة الجسدية لأقذف بك الى الخارج ولكن يسعدني جداً ان احاول على الأقل!».

غمر اندريا شعور بالرضا وهي ترى سيمون تلوذ بالفرار عند سماعها تلك الكلمات. رأتها تهرول الى سيارتها وباصابع مرتبكة ادارت محرّك السيارة. وقبل ان تنطلق ارسلت الى اندريا نظرة حقد وكراهية وقالت:

«احتفظي بقواك يا عزيزتي. فجميع الخاسرين يحتاجون عادة الى قواهم».

وتوارت عن نظر اندريا مخلفة وراءها سحباً من الغبار.

دخلت اندريا الى القاعة واغلقت الباب وراءها. بحثت عن بليز فلم تجده. استجمعت شجاعتها وصعدت الى غرفة النوم علّها تجده فيها.

كان بليز قرب النافذة ونظره الى الخارج. ربما كان يراقب رحيل سيمون ويتساءل في سرّه متى سيعودان معاً. انتظرت اندريا ليشعر بوجودها والغيرة تنهش صدرها. ظلّ ساكناً لا يتحرك واخيراً قال بدون ان ينظر اليها:

«انتظرتك طويلا ليلة امس يا اندريا. اين كنت؟».

بللت شفتيها بلسانها وقالت بفتور:

«كان فيليب بحاجة لي».

«وانا الم اكن بحاجة اليك؟ أولم يكن لهذا اي حساب لديك؟».

«لم استطع ان اترك فيليب وفي ايّ حال لقد وجدتَ البديل على ما اعتقد».

وما ان تفوهت بتلك الكلمات حتى تمنت لو انقطع لسانها.

التفت اليها وادهشها عدم تجهّم وجهه. كان في الواقع يبتسم! قال:

«كنت في الماضي اتحوّل الى زجاجة الشراب اوفّق فيها كربي اما الآن فأراني اسعى اليك انت لتداوي جروحي».

«انا بحاجة الى من يداويني».

«اذن علينا ان نداوي بعضنا البعض».

اجابها وهو يقترب منها ويأخذ وجهها الذي اشاحت به بين يديه وينظر في عينيها ويضيف:

«انظري اليّ يا حلوتي».

اندفعت من بين يديه وهي تصرخ:

«لا تلمسني!».

«ولكن هذا لن يثنيني يا حلوتي! سألمسك حينما وكيفما اشاء حتى يتوقف رأسك العنيد عن صدّي وترجع اليّ المرأة التي عرفت!».

«لقد اخذت كل الدروس التي احتاجها على يديك يا بليز. فانت استاذ رائع وخبرتك لا تضاهى في هذا الميدان ولكن عليك ان تقفل مدرستك الآن لانني تلقيت دعوة من عائلة عمي لحضور عرس كلير».

اجابته وعيناها لا تبرحان وجهه.

«وكيف انسى كلير؟».

قال بمرح ثم اضاف:

«من الصعب عليّ ان اترك القصر في هذا الوقت ولكن لا بأس سأتدبر الامر».

هزّت اندريا رأسها وقالت:

«لا حاجة لاصطحابي. سآخذ فيليب معي ان سمحت لي بذلك ولقد وجهت لنا امرأة عمي دعوة لنمضي بعض الوقت بينهم».

ظلّ بليز صامتاً وعندما نظرت اليه اندريا رأت عينيه تضيقان ثم سمعته يقول:

«ولم لا اذهب انا معكما؟».

وبضيق ونفاد صبر وجدت اندريا ما تقوله فشرحت:

«اولا سيسبب حضورك احراجاً لكلير، و. . .».

قاطعها قائلا:

«اريد الحقيقة يا اندريا».

«حسناً».

اجابته وتابعت:

«الحقيقة انني اريد ان ابتعد عنك لبعض الوقت وفيليب كذلك بحاجة لان يبتعد فهو ليس سعيداً هنا كما تعلم».

«ولكن هنا بيته ولا بيت له سواه».

«صحيح! وهو ما لا يمكنك ان تنساه!».

امسكها بليز من كتفيها وهزّها بعنف وغرزت اظافره في جلدها وبصوت كالفحيح قال:

«وماذا تعنين بذلك يا زوجتي العزيزة؟».

اغرورقت عيناها بالدموع ولم تجب فصرخ فيها:

«اجيبيني».

واشتدت قبضة يده على زندها فصرخت بدورها ولكن من الألم وقالت.

«خذ المال يا بليز ودعنا نذهب. اعدك باننا لن نزعجك ثانية. بوسعي ان اعيل فيليب وربما عدت الى وظيفتي القديمة. . .».

وتوقفت بدون ان تكمل فالتعبير الذي ارتسم على وجهه افقدها النطق تقريباً.

«اي مال؟».

سألها بهدوء.

«قيمة التأمين على بيل ريفيير».

اجابته وكانت قد ابتدأت تشعر بوهن وضعف واضافت:

«فيليب يعرف كل شيء وهو لذلك يخافك. هو ليس واثقاً من ان موت والده كان حادثاً ويظن انه سيكون الضحية التالية واذا استطعت ان ابعده عن هذا المكان فلربما نسي الامر واستعاد طفولته مع الزمن».

شحب وجهه ورأت اندريا الشرر يتطاير من عينيه واليأس يغلفه واخيراً قال بصوت أجش:

«ولو ان احداً غيرك قال هذا لقتلته!».

ودفعها عنه باشمئزاز فترنحت وكادت تقع ثم تابع:

«لست وحدك من استلم رسالة هذا الصباح يا سيدتي».

قال هذا واخرج من جيب سترته ظرفاً كبيراً ولوحه بوجهها وتابع:

«يسعدني ان اترجم لك ما لا تستطيعين فهمه بالفرنسية ولكني اريدك ان تقرأي ما بداخله».

اخذت الظرف منه واخرجت منه رسالة راحت تقرأها. واحتوى الظرف اوراقاً كثيرة وصوراً ومستندات ووثائق رسمية ورسالة تحمل توقيعاً غريباً.

استطاعت ان تفهم بعض العبارات وسألها بليز وهو يشير الى الرسالة باصبع مرتجفة:

«هل تريدين اية مساعدة؟ انها كما ترين من شركة التأمين وهم يقولون فيها بان الشركة قد ختمت التحقيق وان لديهم الدليل بان الحريق الذي التهم «بيل ريفيير» كان مفتعلا وهم لذلك لن يدفعوا اي تعويض. اظن انني قلت لك في السابق انه لم يبق شيء من بيل ريفيير الا قيمة الايجار الذي تدفعه الدولة. هذا كل ما يملك فيليب بالاضافة طبعاً الى سقف يبقى فوق رأسه وعاطفتك المتناهية».

«انهم يعرفون اذن بان الحريق كان مفتعلا».

«بالطبع يعرفون فهم ليسوا اغبياء ولو ان جان بول كان في حالة طبيعية لادرك هذا هو الآخر ولم يراهن بكل ما يملك على تلك المحاولة اليائسة وخسر بالنتيجة كل شيء حتى حياته».

اذن لقد كان جان بول اي والد فيليب من اشعل الحريق. صفعتها الحقيقة المرّة ولكنها في الوقت نفسه احيت في نفسها املاً كادت تفقده.

«كما ترين فان جان بول هو الذي اشعل النار وكان همّي الوحيد ان لا يكتشف فيليب هذه الحقيقة. ولطالما اقنعت نفسي ان كرهه لي هو من وحي سيمون التي ارادت ان تنتقم مني على ابشع صورة».

«أنا آسفة واعرف انك ما زلت تحبها».

«ماذا؟».

«اعرف انك تحب سيمون وانك امضيت الليلة السابقة معها».

«يا الهي؟ هل يجب ان اتحمل كل هذا الافتراء وهذا التشويه لسمعتي؟ اذن انت تظنين انني هرعت الى سيمون عندما انكرتِ عليّ حقي!!».

قذف برأسه الى الوراء واطلق ضحكة مرحة وتابع:

«كلا يا عزيزتي. فعندما يرى الانسان لمحة من السماء فانه لا يعود الى الجحيم. عندما تأكدت بانك لن تعودي خرجت اتنزه سيراً على قدمي وتوغلت في التلال وشعرت بانني تحررت اخيراً من كل العفاريت التي كانت تسكن رأسي وعدت لافتح صفحة جديدة في حياتي. وعندما استلمت هذه الرسالة اعتبرتها كاشارة من السماء لكي اضع كل الماضي وراء ظهري ولا انطلع الآ الى مستقبل مشرق. لقد اتضحت الحقيقة كلها اخيراً وآمل ان يأتي يوم استطيع ان اطلع فيليب عليها وابرىء ساحتي».

ابتسم عندما رأى النظرة التي ارتسمت في عيني اندريا وهي تصغي اليه ثم تابع:

«هل تظنين انها تخلّت عني من أجل هذا؟».

ورفع يده ولمس الندبة فوق خدّه وتابع:

«قد يكون في هذا بعض الحقيقة ولكن الواقع ان سيمون تخلّت عني

عندما ايقنت بانني لن اجاريها في لعبتها القذرة واكتم الحقيقة عن شركة التأمين. لقد بذلت جهداً كبيراً لتقنعني كما فعلت مع جان بول ثم أخذت فيليب على أمل ان تحصل على المال بواسطته».

قال هذا ووقع الرسالة بيده واضاف:

«اما الآن فان الحال يختلف».

اعاد الظرف الى جيبه بعد ان وضع الاوراق في داخله وكانت علامات التعب مرتسمة على وجهه، وعيناه زائغتين ولم يأت باي حركة يستدلّ منها بانه كان سيلمسها وتابع حديثه باعياء واضح وقال:

«لم اعرف في حياتي المًا كالذي عرفته ليلة زفافنا عندما اشحت بوجهك عني. ظننت وقتها ان ليس في الدنيا افظع من ذلك ولكنني الآن اكتشفت المًا اشدّ وادهى. اذهبي الى لندن يا اندريا. لن اوقفك عن بناء حياة جديدة لك. اما بالنسبة الى فيليب فانه سيبقى معي هنا. هذا هو مكانه الطبيعي. لن يكون الأمر سهلاً ولكنني الآن على الاقل اعرف ما عليّ ان احاربه».

«بليز».

نطقت باسمه متوسلة ووضعت يدها على ذراعه لكنه تراجع الى الوراء وكأن افعى لسعته وقال:

«انا لا اريد شفقتك يا اندريا. كنت آمل ان احصل على حبّك في يوم من الأيام ولقد كنت طويل البال وصبوراً ولم اكرهك على عمل لم تريدي ان تقومي به، وانا اعرف انك تخافين مني».

«انا لا اخاف منك يا بليز، الا ترى؟ لقد اخطأت في حقك وانا آسفة لذلك».

«لا تدعينا نتكلم عن الاخطاء يا عزيزتي. فانا ايضاً اخطأت في حقك عندما ارغمتك على الزواج مني. ولكنني على استعداد الآن لان اصلح غلطتي. لن اتمسك بوعدك على البقاء سنة. يمكنك ان تذهبي ساعة تشائين».

تنهدت اندريا بألم وفي اللحظة ذاتها تناهى الى اذنيها وقع خطوات سريعة ومتلاحقة وادركت بغريزتها بان شيئاً ما ليس على ما يرام.

«بليز...».

ابتدأت تقول عندما فتح الباب فجأة وظهر غاستون لاهثاً وقال:

«فيليب غير موجود يا سيدي. لم نعثر عليه في اي مكان وثيابه لا تزال مكانها».

خرجت من بين شفتي بليز عبارات ضيق وغضب وانطلق يعدو وهو يسأل:

«هل ذهب مع الآنسة دولاتور؟».

هزّ غاستون كتفيه واجاب:

«وضعت الحقائب في سيارتها يا سيدي ولكن لم يرها احد تنطلق».

«انا رأيتها».

اجابت اندريا وتابعت:

«لكنني لم ار فيليب. ربما خبأته بين الحقائب في السيارة فلقد بدا تصرفها غريباً».

التفت بليز الى غاستون وقال له بصوت فيه الحاح:

«اسرع واحضر سيارة اللاند روفر وسنلحق بها. لا يمكن ان تكون قد ابتعدت كثيراً فالطرق ما زالت شبه مقفلة في بعض الاماكن».

«هل يمكنني مرافقتكما؟».

سألته اندريا متوسلة.

«كلا».

اجابها بدون ان ينظر اليها ثم اضاف:

«لقد ذكرت امس انه لم يكن في اتمّ الصحة ومن الافضل اذن ان تبقي هنا وتحضري له فراشه وتستدعي الطبيب. اطلبي الى صديقك الانكليزي ان يذهب الى القرية ويستدعي الطبيب حالاً».

خرج بليز من الغرفة وغاستون في اعقابه وما ان اصبحت اندريا وحدها حتى استبدت بها افكار مقلقة. خشيت على فيليب من الحقد والكراهية التي كانت تملأ قلب سيمون واغمضت عينيها وكأنها تطرد صورة سكنت رأسها وارعبتها. كلا قالت في نفسها. حتى سيمون لا يمكنها ان تلحق الأذى بطفل صغير. فهي لم تأخذه الا لمجرّد التحدي والانتقام.

كانت السيدة بريسون اول من اكتشف اختفاء فيليب. فلقد ذهبت لتوقظه ككل صباح لكنها وجدته مستغرقاً في نوم هادىء، فقررت ان تدعه

ينام بعض الوقت وعندما رجعت اليه كان قد اختفى وكان على ما يبدو ما زال في ثياب النوم لان ثيابه موضوعة قرب السرير بترتيب.

«يا صغيري المسكين».

ظلت السيدة بريسون تردد وهي تفرك يديها بقلق وقالت:

«سيشعر بالبرد حتماً. ما الذي يجول في رأس الآنسة دولاتور يا ترى؟».

اتجهت اندريا الى سرير فيليب وراحت تشغل نفسها في ترتيبه. شعرت بجو العليّة الخانق لأول مرة منذ وطئت قدماها هذا المكان. وادركت انها ساعدت سيمون من حيث لا تدري باختيارها هذه العليّة لفيليب، فأي مكان افضل منها يوفر لسيمون الجو المناسب لتنسج خيوط المؤامرة وتنصب الشرك وتنفث السمّ في اذني ذلك الطفل المسكين؟ لا بد انها كانت على علم بقصة ماري دنيز بحكم التصاقها بعائلة لوفاليه لمدة طويلة.

فجأة تناهى الى اذنها نشيج غريب وكأنه بكاء طفل. تسمّرت في مكانها وارهفت السمع.

ظنت اول الامر ان خيالها المحموم جعلها تسمع اصواتاً غير موجودة لكن النحيب عاد هذه المرّة ايضاً وكأنه من مكان قريب. سمعته خافتاً ويائساً ثم انقطع.

وقفت تحدق في ارجاء تلك الغرفة المستديرة ونادت «فيليب» عدة مرات. ركعت على الأرض ونظرت تحت السرير. فتحت الخزانة وفتشتها لكنها لم تر ذلك الجسم الصغير الذي كانت تبحث عنه.

عاد النشيج ملحاحاً ثم تحوّل الى أنين متواصل لبرهة من الزمن ثم انقطع. بدا لاندريا ان الصوت صادر من مكان ما فوق رأسها.

همّت بالخروج ولكن وبشكل لا يقبل اي خطأ استوقفها صوت منبعث من فوق رأسها. دفعت الباب بيدها بقوة لكنه بقي ثابتاً. مرّت باناملها فوق المسامير وفجأة تلوّت ملامحها بألم عندما اخترقت نسرة من الخشب جلدها. انتزعتها باسنانها وعادت تتأمل الباب. استغربت ان تجد الخشب حول المسامير خشناً وغير مصقول فلقد كان غاستون يفتخر دائماً باتقانه الاعمال التي يقوم بها وهذا العمل غير متقن ابداً وكان بامكانها هي ان تقوم بافضل منه بكثير لو كانت لديها الادوات اللازمة. استوقفتها كلمة «ادوات»، واسترجعت في ذاكرتها صورة سيمون وهي جالسة على حافة

الطاولة في المستودع وبين يديها مفك راحت تقلبه وتتسلى به. تذكرت المشهد جيداً لانه كان قد لفت نظرها التنافر الواضح بين يدي سيمون الغضتين وبين المفك الكبير. أولم يفقد غاستون بعض الادوات ويتهم فيليب بأخذها؟ أولم ينفِ فيليب علاقته بأي من تلك الادوات؟

ضغطت بيديها على صدغيها طلباً لبعض الصفاء في ذهنها.

تذكرت فجأة سلوك فيليب الشاذ كلما اتى على ذكر سيمون. هل كان يعلم يا ترى انها هي من اخفى الادوات وكتم ذلك الامر ولاء منه لها؟ والمزلجة؟ من الذي انهال عليها بالضرب هكذا ولم يتركها الا كومة من ركام؟ كان من السخف الصاق هذه التهمة بطفل صغير وهو عمل عنيف يعجز عنه من كان اكبر من فيليب واقوى. ايقنت اندريا ان في الامر سرّاً وان عليها ان تكتشفه.

راحت تقرع باب السقف بيديها وتنادي فيليب باسمه. ظنّت انها سمعت صوتاً خافتاً وكان هذا كافياً بالنسبة اليها. هبطت الدرج كالصاروخ واصطدمت بآلان الذي كان قد وصل لتوّه.

«هدّئي من روعك».

قال لها آلان وهو يسندها بذراعه واضاف:

«الطبيب في طريقه الآن».

«انه فوق في مكان ما فوق العليّة. علينا ان نخرجه في الحال. تلزمنا بعض الادوات».

قالت اندريا بصوت متقطع وكأنها تزدرد الكلمات وتابعت:

«وضعته فوق واوصدت الباب!».

«لا بد انك تمزحين! ومن يقدم على مثل هذا الاجرام؟».

«هي».

«انتظري هنا ربما استطعت ان اجد مخلا او فأساً او اي شيء من هذا القبيل».

«حسناً حاول ان تجد مفكاً كبيراً. هذا ما يلزمنا. كان المفك معها ولقد رأيته بنفسي بين يديها ولكنني لم ادرك آنذاك ما كانت عازمة عليه».

«وكيف لك ان تدركي. انه عمل شيطاني لا يخطر في بال احد. عودي

اليه الآن وكلميه حتى لو لم يجب. قولي له اننا سنخرجه او اي شيء آخر. فهو يثق بك».

رجعت اندريا الى العليّة وتسلقت الدرج المؤدي الى الباب السحري في السقف وحشرت نفسها تحت الباب مباشرة حتى كاد فمها يلتصق بخشبه وراحت تناديه وتغني وتروي له الحكايات المسلية ولم تسمع الا صدى صوتها.

«هل حالفك الحظ؟».

سألها آلان الذي عاد بدون ان يوفق في ايجاد المفك ولكنه كان يحمل بين يديه فأساً:

«انه لا يجيب».

قالت وعيناها على الفأس ثم اضافت بقلق ظاهر:

«ربما كان فوق الباب مباشرة فكيف ستكسره اذن؟».

«كلميه وقولي له ان يبتعد عن الباب قدر الامكان وباننا سنحاول فتح الباب ونخرجه».

اطاعته اندريا بشكل آلي وكانت تشعر بخدر في جسمها ثم نزلت عن الدرج بسرعة بينما استعدّ آلان لتوجيه الضربات الى الباب. كان الخشب عتيقاً وابتدأ يتداعى تحت وطأة ضربات آلان.

«ساحدث فتحة فيه. هل تظنين انه بامكانك ان تدخلي منها؟».

سألها آلان وهو يلهث من الجهد الذي بذله.

«سأتدبّر امري. اسرع».

«لن تجدي الأمر مريحاً من المفروض ان اصعد بدلا منك».

«كلا انا اصغر حجماً منك واستطيع ان ادخل من فتحة صغيرة».

حشرت نفسها في الفتحة وشعرت بنسرات الخشب تخدش جلدها وعلق سروالها باحداها. كان الدم يسيل من يديها عندما وصلت اخيراً الى حيث كان يرقد فيليب فاقد الوعي. ركعت بجانبه وتحسست جسمه الصغير فوجدته بارداً كالثلج. خلعت سترتها ولفتها حوله وصرخت تنادي آلان وتخبره بانها وجدته فليسرع الى كلوتيلد ويطلب اليها ان تحضر بعض الأغطية الدافئة وشراباً ساخناً وقالت:

«سابقى معه بانتظار الطبيب. وارجوك يا آلان ان تسأل كلوتيلد ان

تحضّر له الحمّام».

سمعت خطوات آلان تبتعد. اخذت فيليب بين ذراعيها وانحنت عليه وراحت تفرك يديه وقدميه العاريتين. كانت اطرافه كالجليد. ضمته اليها بشدة لتعطيه بعضاً من دفئها. ارتعش بين ذراعيها وفتح عينيه ونظر اليها. ظنت اندريا لاول وهلة انه لم يعرفها.

«فيليب».

نادته وهي تنحني فوقه وتضغط بشفتيها على شعره المشعث وقالت:

«انا اندريا. انظر اليّ».

ومضت عيناه وقطّب جبينه وسألها بحيرة:

«هل انتهت اللعبة؟».

«اللعبة؟».

سألته اندريا مستفهمة فاجابها شارحاً لها ما التبس عليها:

«كانت الخالة سيمون تقوم بدور ماري دنيز وكان عليّ ان لا ادع ذا الندبة يجدني لذلك اصعدتني الى هنا وذهبت. شعرت بالبرد وانتابني رعب شديد عندما شعرت ان غيابها قد طال».

«بالطبع انتهت اللعبة».

اجابته اندريا وهي تشعر بغصة في صدرها وتابعت:

«والآن يمكنك ان تأوي الى فراشك بعد ان تتناول شيئاً ساخناً».

«حسناً».

اجابها ثم نظر اليها وسألها بدهشة:

«اندريا لماذا انت بدون ثياب؟».

«لانك ترتدي سترتي وانت تبدو مضحكاً فيها. انظر كم هي الاكمام طويلة واذا ما رفعت القبة يختفي فيليب تماماً».

اجابته بمرح ورفعت قبة السترة حتى غطت رأسه كله.

اطلق بدوره ضحكة خافتة وقال:

«فعلا انه امر مضحك... وجودي هنا».

«بالفعل».

«اندريا، انا لا اريد القيام باي دور في قصة ماري دنيز بعد اليوم. اتعرفين انها حطمت مزلجتي؟».

«من الذي كسر المزلجة؟ ماري دنيز ام الخالة سيمون؟».

سألته اندريا وقد لاحظت كيف اختلطت عليه الامور فراح يخلط الواقع مع الخيال.

«لا ادري».

اجابها بعينين نصف مغمضتين ثم تابع:

«كان يلتبس عليّ الامر في كثير من الاحيان. قالت لي الخالة سيمون انها هي ماري دنيز وكيف يمكنها ان تكون ماري دنيز والخالة سيمون في الوقت نفسه؟».

«هي ليست ماري دنيز ولا يمكن ان تكون ماري دنيز كما لا يمكن لعمّك بليز ان يكون من تسميه: ذا الندبة».

اجابته وقد ابتدأت بالفعل باصلاح ما يمكن اصلاحه وعندما لم يجبها بشيء قررت ان ترجىء هذا الحديث لوقت لاحق.

سمعت اصواتاً ووقع خطوات في الغرفة تحتها فنادت:

«آلان، اصعد الدرج وسأناولك فيليب».

حملته بين يديها بحذر بالغ واتجهت صوب الفتحة وركعت قربها وقالت:

«اسمع ايها البطل! لقد علق هذا الباب السخيف ولذلك علينا ان نخرج من هذه الفتحة. يمكنك ان تتظاهر بانك رزمة بريدية سيتناولها مني الآن».

ضحك فيليب من اعماقه وكان على اندريا ان تقاوم رغبة بضمه اليها والتشبث به بين ذراعيها. لكنها بدلا عن ذلك قالت:

«هيا. احذر نسرات الخشب وتذكر ان الرزمة لا تلتوي. نعم هكذا... عافاك».

كانت تثرثر هكذا وهي تنزله من الفتحة.

«سأتناوله انا».

جاءها صوت بليز وشعرت بفيليب يتشنج بين ذراعيها. اطلق تنهيدة عميقة وفجأة اختفت التشنجات. وما هي الا ثوان وكانت يدا بليز القويتان تتناولانه منها وتنزلانه بحذر وثقة.

«هيا يا صغيري».

سمعته اندريا يقول ثم تابع:

«سيلقي الطبيب عليك نظرة سريعة الآن وسنصعد انا واندريا لنراك بعد قليل. هيا».

سمعت فيليب يتمتم شيئاً لم تفهمه وخرجت من بين شفتيها صلاة صامتة وشعرت فجأة بالبرد. نظرت من الفتحة ورأت غاستون يحمل فيليب وينطلق به.

«هل تريدين ان تنتظري لنفتح الباب؟».

سألها بليز.

«كلا».

اجابته واسنانها تصطك من البرد وتابعت:

«اظن بانني لا ابالي بالنسرات فانا اشعر ببرد شديد».

انزلت قدميها وشعرت بيدين قويتين تسددان خطواتها على السلم. انزلقت اخيراً من الفتحة وعلقت احدى النسرات بذراعها فسال دمها. ساعدها بليز على النزول. رأت آلان واقفاً والفأس بيده.

«عافاك».

قال لها ما ان وقع بصره عليها واصطبغ وجهه بلون احمر قان. تخيلت الصورة التي بدت فيها امامهما: سروال من قماش الجينز ممزق ومتسخ وصدرية من الدانتيل لا تغطي شيئاً. وكأن بليز قرأ فكرها فاسرع بخلع سترته ويضعها حول كتفيها. شكرته ثم خيّم على الغرفة صمت قطعه آلان بصوت حرص ان يأتي طبيعياً حين قال:

«يجب ان اذهب لكن عليّ قبل ذلك ان اعيد الفأس الى مكانه».

اطلق ضحكة مرحة وانصرف وهو يصفّر لحناً شجياً.

وما ان توارى عن نظرهما حتى قالت اندريا بلطف:

«كان في غاية اللطف».

«اعتقد انه واقع في حبّك».

اجابها بليز بهدوء. بلعت ريقها بعصبية واجابته:

«كلا، لا اظن ذلك».

«لكنك لست خبيرة في هذه الامور وانت لا تميزين الحب الصادق عندما يعرض عليك، اليس كذلك يا صغيرتي؟».

لم يكن لديها ما تجيب فلزمت الصمت.

بعد قليل قال:

«لقد وجدنا سيمون. وكانت قد انحرفت بسيارتها عن الطريق وارتطمت بحائط».

«هل لحق بها اي اذى؟».

«كلا انها حريصة جداً حين تكون المسألة مسألة بقاء. لم تكن بحاجة الى اقناع كثير لتخبرنا اين وضعت فيليب. زعمت انها مجرّد مزحة ولكنها لم تعد تعتبرها مزحة عندما لمست انني لست على استعداد لارجاعها الى هنا اوحتى الى توصيلها الى اقرب كاراج».

«تعني انك تخليت عنها هناك؟».

«لا بد ان يجدها احد عاجلا ام آجلا. وكما قلت لك هي حريصة جداً على حياتها وقادرة على الاحتفاظ بها بعكس فيليب. وعلي ان اشكرك لان سرعة خاطرك هي التي اسعفته في الوقت المناسب».

«لست بحاجة الى شكر. انا احبه وسأفتقده كثيراً».

اجابته بصوت خنقته العبرات.

خيّم بعد ذلك صمت مشحون قطعته اندريا بسيل من الكلمات فراحت تقولها بسرعة لئلا تخونها شجاعتها فتتوقف. قالت:

«اعرف ان لا شيء يمكن ان يمحو اساءتي اليك يا بليز. لم يكن لها اي مبرر ولكن اريدك ان تعرف انني آسفة. وهناك شيء آخر. لقد قلت بانني سببت لك الماً عندما اغمضت عيني واشحت بوجهي ليلة زواجنا. اريدك

ان تعرف ان هذا غير صحيح. فأنا لم اجدك منفراً ابداً. بل على العكس».

«اذن لماذا اغمضت عينيك عندما عانقتك».

«لانني كنت خجلة».

رفع حاجبيه وقال بمرح وهو يمد يده:

«اذن اعطني سترتي من فضلك».

«لا تكن خبيثاً».

قالت له وهي تتشبث بالسترة ثم سألها:

«هل فعلا تخجلين عندما انظر اليك؟».

«كلا الا اذا كان النظر لمجرّد تلقين درس او لانك تريد وداعي. ففي الحالتين اجد الامر وهيباً ولا يحتمل».

«وان قلت لك بانك اجمل ما في الدنيا بالنسبة الي ولا فرق ان كنت على ظهر جواد تمتطينه او كان السخام يكسوك او كنت مرتدية ثيابك او كنت نصف عارية فانا اريد ان اظل انظر اليك طوال عمري. وهل تظنين بانني سأسمح لك بالأبتعاد عني؟».

«اوه يا بليز».

اجابته والدموع تنهمر من عينيها ثم اكملت:

«لست اعرض عليك الكثير فانت تعرفين وضعي ووجود فيليب معنا من شأنه ان يعقد بعض الامور وانت تعرفين شعوره نحوي».

«سوف تتحسن الامور عندما لا يعود طفلا وحيداً».

اجابته بابتسام ثم قالت:

«اوه يا بليز كم احبك!».

وانزلقت السترة عن كتفيها عندما فتحت ذراعيها لاستقباله بينهما واغمضت عينيها.

بعد وقت طويل سألها ورأسه يستريح على صدرها:

«هل آلمتك؟».

رفعت اندريا يدها وازاحت عن جبينه بعض خصلات من شعره واجابته بحنان ورقة.

«لم الاحظ».

وتذكرت فيليب فقالت:

«علينا ان نذهب للأطمئنان على فيليب».

«فيليب بخير وهو الآن موضع اهتمام لم يعتده وعناية لم يألفها مع سيمون. لا تعجلي مغادرة برجنا العاجي يا اندريا ففي الدنيا ويلات ومآس كثيرة كما اكتشفت ذلك بنفسك».

«لكننا لن نسمح للدنيا ان تنال منا بعد الآن».

«بالطبع».

قال لها وهو يتكيء على كوعه ثم تابع:

«على انه لا يجب ان تتوقعي المعجزات. لا اريدك ان تتألمي بعد

اليوم».

«كيف اتألم وانت بقربي تداويني؟».

واذا بها تلوب بين ذراعيه طائعة مختارة. فاخيراً وجدت ملاذها في هذا المكان حيث تهبّ العواصف.